

مجلة دينية علمية ...

تصدر ... الأزهر

الجزء الثالث	(٤) ربيع الأول سنة ١٣٥	المجلد الثامن

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

قرش

... ... ٣٠

... ... ٤٠

داخل القطر ٢٠

خارج القطر ٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ ...

فهرس

الجزء الثالث — المجلد الثامن

الموضوع	بقلم	صفحة
الاحتفال بالمولد النبوى بالأزهر		
خطبة فضيلة الأستاذ الأكبر	... ...	١
ذكرى المولد النبوى الكريم — قصيدة ...	فضيلة الاستاذ الشيخ احمد شفيع السيد	٥
ذكرى المولد الشريف — قصيدة	« « عبد الجواد رمضان	٧
مولد محمد خاتم المرسلين	حضرة الاستاذ مدير المجلة	١٤٥
دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد	فضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	١٥٥
عظمته صلى الله عليه وسلم	« « يوسف الدجوى	١٦٠
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم	« « عبد الجليل عيسى	١٧٥
محمد صلى الله عليه وسلم	« « محمود شلتوت	١٨٣
محمد خاتم النبيين	« « محمد احمد العدوى	١٨٧
من نفحات النبوة	« « صادق عرجون	١٩١
فى ظلال الاسلام	حضرة الاستاذ الدكتور زكى مبارك	١٩٦
كيف نحيي المولد النبوي	فضيلة الاستاذ الشيخ أمين الخولى	١٩٩
أساس الرقى فى الاسلام	« « محمد عرفة	٢٠٢
ذكرى الرسول الاعظم	حضرة الأستاذ احمد محرم	٢٠٦
فى ذكرى الميلاد النبوى	فضيلة الأستاذ الشيخ فكرى يس	٢٠٩
ميلاد الرسول	« « محمد الأسمر	٢١٣
دراسة فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم	فضيلة الاستاذ السيد عبد القادر المغربى	٢١٥
الاخلاص	« الشيخ عبد الرحمن الجزيرى	٢٢٣
الاسلام والفلسفة	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٢٢٩
فلسفة ابن رشد	فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى	٢٣٤

الاحتفال بالمولد النبوى بالازهر

خطبة إصلاحية جامعة لفضيلة الأستاذ الامام

احتفل الجامع الأزهر فى مساء السبت ١٢ ربيع الأول بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتشدت فيه جماهير من العلماء والوجهاء والطلاب يستمعون لآيات من التنزيل الحكيم ، وما وافت الدقيقة الخامسة والأربعون بعد الساعة الثامنة حتى نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فألقى خطبة من لباب الحكمة الاسلامية ، جمعت من أصول الاصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى ، فى بلاغة تسترعى الأسماع ، وبيان يستهوى الألباب ، ما المسلمون فى العالم قاطبة فى أشد الحاجة للأخذ به والقيام عليه . ولسنا نشك فى أن هـذا القبس من النور الذى ألقاه فضيلته على هذه الأصول سيسرى فى الجماعات الاسلامية ، فتستنير به عقول ، وتحيا قلوب ، وتنتعش آمال . قال حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة على رسوله .

وبعد : فان الأمم تعنى بذكرى عظمائها للاشادة بأقدارهم ، وتقدير أعمالهم ، ووفاء لحقهم عليها ، وتذكيرا للحاضرين بأعمال الماضين ، ليحفزوا هممهم على الاقتداء بهم ، والسعى لبلوغ درجات المجد التى استحقوا عليها التكريم .

وتختلف هذه الذكريات فى أشكالها تبعا لاختلاف الأمم فى أمزجتها وميولها وعاداتها .

وسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فى غير حاجة الى تكريم الناس بعد أن كرمه الله ، فرفع ذكره ، وأعلى قـدره ، وخلد اسمه فى كتابه الكريم ، وفى أنواع من العبادات مفروضة وغير مفروضة . ففى كل يوم وفى كل لحظة له عند المسلمين تعظيم وإجلال يفوقان كل إكبار وتقدير .

ومقام النبى الكريم ليس بالمقام الذى ينال بالكسب ، ولا بالمقام الذى تشرئب اليه الأعناق وتشخص اليه الأبصار ، فهو منحة الله وفضله يختص به من يشاء من عباده الذين أعدهم لهاتيك الدرجات ، ونشأهم لمثل هذه النفحات .

فذكرى مولده صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون باحياء سنته ، وإحياء المبادئ السامية والأخلاق الكريمة التى اتصف بها ودعا الناس اليها . فلا يكفى أن تتلى قصة المولد وترتل ، وأن

تضاء المصابيح وتنظم ، وأن تلقى العظات والسير ثم تنسى . فلم يكن صاحب الذكرى قوالا ، بل كان فعالا ، وكان فعله أكثر من قوله . والكلام إذا لم يتبعه العمل ولم يحدث فى النفس أثره بحيث يحملها على المصابرة والمثابرة ، كان الايمان به ضعيفا ، أو كان كما يقول أهل النظر : تصورات لا تصديقات .

ولا يكفى المحبوب أن تقول له : إنى أحبك ، بل هو يقاضيك تبعات الحب وما يكلفه الحب من المتابعة واحتمال المصاعب وتجشم المشاق فى سبيل رضا المحبوب : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » .

وما ابتليت أمة من الأمم بشر من كثرة القول وقلة العمل . ذلك هو الداء الدوى ، والعقاب الذى ينزله الله تعالى على من غضب عليه من عباده ، وحاد عن الجادة وعن السنن الالهية ، وغفل عن سنن الكون وعن هدى الاجتماع .

الأمة الاسلامية مبتلاة منذ أزمان طويلة بهذا ، ومبتلاة بالجدل العقيم : تجادل فى أصول العقائد ، وتجادل فى الفروع ، وتجادل فيما هو أقل شأنا من الأصول والفروع ، راضية بهذا الجدل ، لاهية عن سر الاسلام وسر عظمته ، وعن سر دعوة الرسول الأكرم ، وعن مقومات الأمم التى لا تستطيع أمة أن تحيا وترفع رأسها إلا بها ، ولا أن تسمع الناس كلمتها إلا بها ، ولا أن تجد مكانها فى العز والمجد إلا بها .

سحرت بالطعام وبالشراب ، وتلهت بالأحاديث وبالمظاهر الكاذبة الخادعة ، وانصرفت عن طرق المجد الصحيحة ، وغفلت عن الكون وعما أودعه الله فيه من أسرار ، ومن قوى خلقت للانتفاع بها ، وابتعدت عن التحلى بالعزائم الصادقة والأخلاق القويمة التى كانت عماد الرسول الأكرم فى دعوته وإبلاغ رسالته .

ولم تكتف بهذا بل انقسم أبناؤها وتعادوا ، وأقاموا الحروب بعضهم على بعض ، كل له مذهب ينصره ورأى يدافع عنه ، وكل ينظر الى مصلحة خاصة فردية أو قومية أو جنسية أو مذهبية ، فصارت القوى من عوامل فناء الأمة لا من عوامل بقائها ، ومن أسباب شقائها لا من أسباب سعادتها .

هذا والقرآن الكريم يدعو الى الوحدة ، ويدعو الى رد ما اختلف فيه الى الله ورسوله . وصفهم بالأخوة وقال : « إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله » فلم يمتثلوا أمره ولم يتقوا الله ، بل عملوا على التفريق ، وعلى توسيع شقة الخلاف . ووصف النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ،

فلم يكن منهم إلا أنه إذا اشتكى عضو زادوا ألمه وسروا بنكباته ، وانتهزوا فرصة مرضه لانتزاع ما بيده .

لم يقف أمر التخاذل بينهم عند التخاذل بين الأمم ، بل تخاذلوا جماعات ، وتخاذلوا أفرادا ، وتقطعت الروابط بينهم ، فلا يعنى المرء إلا بنفسه ، لا يبالى فى سبيل مجده أن يهدم غيره ولو لم يقف له فى طريق ، ولا يبالى بمن مرض ولا بمن جاع ولا بمن ابتلى ، كأن الدنيا كلها شخصه ، فاذا سلم فقد سلمت الدنيا جميعها .

إذا كان الناس جادين وقد آن أوان الجد ، فيجب أن تكون ذكرى صاحب هذا المولد الشريف وافية بالغرض من الذكرى ، محققة لمبدأ الوحدة الاسلامية ، محققة لمبدأ التعاون والتناصر ، وللغرض الأسمى الذى نزل به الوحى وجاهد محمد صلى الله عليه وسلم فى سبيله طول حياته .

فتؤلف الجماعات من المفكرين والقادة فى الأقطار الاسلامية للبحث عن أدواء الأمم الاسلامية وأمراضها ، فى الدين والاجتماع والأخلاق والسلطان ، وتفنى فى هذه الجماعات أنانية الأفراد بل وأنانية الجماعات والأجناس ، وينظر الى الأمة باعتبارها طائفة واحدة يحدها الاتجاه الى القبلة والصلاة اليها ، فلا ينظر الى جنس ولا الى مذهب ، بل الى وحدة خلع الاسلام عليها ثوبه وجمعها تحت رايته ، فاصطبغت بصبغته ودانت بكتابه .

ولدى الأمة الاسلامية قضايا كثيرة معقدة : قضية الرجوع بالدين الى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين ؛ وقضية التعليم الدينى وغير الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب فى الحياة ، وما أخرجته العقول من ثمرات ناضجة ؛ وقضية حماية الدين من العدوان والدعوة اليه كما أمر الله بالحكمة ؛ وقضية نظام الأمم الاسلامية وارتباطها بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ؛ وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم .

وهناك قضية هى أهم القضايا ، وهى مقومات الأمم الاسلامية التى يجب أن يحافظ عليها ويبنى المجد على أساسها ، وهى قضية دقيقة يثور من أجلها ، عن قصد أو غير قصد ، خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين ، والمتدينين وغير المتدينين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ، ونظام التقاليد والعادات .

ولدى الأمة الاسلامية ماض يجرر أثواب الفخر والشرف فى كل ميادين الحياة : فى ميدان العلم ، وفى ميدان الفنون ، وفى ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضى والتخلص منه والزراية عليه والحط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضى صلة .

وليس أدعى الى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التى فيها عقوق الأبناء

للآباء ، ونكران الجيل وإنكار التاريخ ، وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور .

وهل يستطيع عاقل أن ينكر أن لنا أسساً صحيحة قويمة من دين وعلم وتقاليد ومقومات ، من حقها أن نحافظ عليها ، وأن نعتبرها تراثا عزيزا لا يليق أن نبدده كما يفعل الوارث السفيه ؟

يحاول بعض الناس هذا مع أن بعض الأمم التى ليس لها ماض ، تحاول أن تخلق لها نسبا بماض مجيد . وبعض الأفراد الذين لهم ذكر نابه بأعمالهم وليس لهم نسب معروف بالمجد يحاولون أن يخلقوا لهم أنسابا معروفة بالمجد والشرف ، ليحدثوا فى نفوس الأبناء شعورا بعظمة من حقها أن يحافظ عليها .

من الحق علينا أن نعتبر بأمم خلت ، وأمم باقية قذفت بماضيها فى النار فأحرقتها تلك النار وأصاب غيرها من الأمم شواظ منها ، ثم هى تحاول الخلاص مما وقعت فيه فلا تجد الطريق .

فليعتبر أولو البصائر بعبر الماضى والحاضر ، وليفكر أولو الشأن فى الأمم الاسلامية ، فان الله سائلهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا وأسأل الله أن يديم لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول توفيقه ورعايته ، وأن يجعل عهده السعيد عهد يمن وبركة ، وأن يوفق القائمين بأمر هذه الأمة الى ما فيه رضاء الله ورضاء العباد .

ذكرى المولد النبوى الكريم

هو فى الكون نوره وبهاؤه ... وهو للعقل رشده وسناؤه
واحد الدهر تجتبيه العرانيـ ... ـن عظيما إيمانه ومضاؤه
جاء والكون جهلة وضلال ... كل شعب تقوده أهواؤه
كل قلب فى حقده يتنزى ... ليس يشفى إن لم تطل دماؤه
وائد البنت يستطيل فخارا ... لو درى قرح الجفون بكاؤه
لم تؤلف قلوبهم وحدة الدي ... ن ولم تهن ربعهم نعماؤه
أرأيت السماء تمطـــر قوما ... بعد جدب يطول فيهم ثواؤه
أرأيت الشفاء وافى مريضا ... بعد ما أيأس الأساة شفاؤه ؟
أرأيت الربيع يخطر فى الرو ... ض فيهتز نوره ورواؤه ؟
أرأيت الصباح يبسم فى الكو ... ن فيسمو فوق الوجود لواؤه ؟
إنه أحمد النبيين وافى ... فزها الكون واستنارت سماؤه
مشرق الشمس دون مولد فذ ... فاض فى الكون بالسلام ضياؤه
وضياء القلوب أجدى وأبقى ... من ضياء الى الجفون انتهاؤه

***

رب قلب يمور بالشك مورا ... زال بالدين ريبه ومراؤه
فطرت من الصدور قلوب ... طاح عنها الهوى وطار عماؤه
يكدر القلب إذ يداخله الشك ... ويبدو عند اليقين صفاؤه
وكذاك النفوس بالشك حيرى ... وضياء الايمان فيها جلاؤه

***

رب ذكرى تبث فى القلب روحا ... هى من دائه الدوى دواؤه
وبذكرى محمد يشرق الكو ... ن ويبدو مثل الصباح مساؤه
قف الى المجد وانشد الشعر يسعفـــك ... بيانا رقراقة أنداؤه
من سماء الخيال يهبط وحيا ... فوق عرش القلوب عز استواؤه

***

يابنى الدين والحياة جهاد دينكم بالجهاد تم علاؤه
صيحة الحق فى القلوب تدوى فالام الضلال يطغى بلاؤه ؟
لن تروا كالنهوض بالخلق والدين عمادا يعز منكم بناؤه
إن فى أنفس الأنام فسادا عبثت فى صميمها أدواؤه
فلتكونوا من الفساد أساة إن ذاك المريض طال شقاؤه

***

فى ظلال الفاروق تخطون بالسعد ظليلا رفافة أفياؤه
ذاك عام فى ظله قد تقضى فتوالت بيمنه آلاؤه
ظفر النيل بانتصار مبين أخلص السعى للعلا زعماؤه
والمراغى شيخ مصر المفدى نافذ الذهن والحجا وضاؤه
فاستجيبوا لقائد لايبارى بهر الدهر علمه وذكاؤه

احمد شفيع السيد
المدرس بكلية اللغة العربية

الشكر على المعروف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

وقال بعض الأدباء : من لم يشكر لمنعمه ، استحق قطع النعمة

وقال غيره : من كفر نعمة المفيد ، استوجب حرمان المزيد .

وقال آخر : من أنكر الصنيعة ، استوجب قبح القطيعة

وأنشد بعض الشعراء :

من جاوز النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مقتا لها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التى قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر أبقى لها

ذكرى المولد الشريف

أميلاد الرسول ، كرمت عيدا فاشرق رحمة ، وابسم سعودا
دنت بك شرعة الهدى المصفى وطابت مصدرا ، وصفت ورودا
وراحت باسمك الأيام نشوى تردده ، ورحت لها نشيدا
سنا ، أضفى على الدنيا جمالا وألبسها من النعمى برودا
وعقد مكارم ضمنت حلاه طريف المجد ، والمجد التليدا
تلاقت فيه أشتات المعالى فسار بأفقها مثلا شرودا

* * *

ويوم أجمل الأيام سبقا غدا فى الدهر جوهره الفريدا
سرت نسماته فى الكون روحا أظل الغور ، وانتظم النجودا
ومادت من مهابته عروش أبت عند الصواعق أن تميدا
تولى الله جلوته ، فجلى وقلده الزعامة والخلودا
تجلت فيه مكة ، وهى عرس غدت زهر النجوم له بنودا
أطل على البرية من ذراه محمد ، اكرم الدنيا وليدا
فما روما ، إذا فخروا بروما وما الأيوان ، تياها مشيدا ؟
هنا مهد ، بعرش الله نيطت عراه ، فراح يخترق الحدودا
هنا سر الحياة ، هنا هداها هنا القطب الذى أرسى الوجودا
فذاك العرش لا عرش هواء تولى النار وادرع الحديدا
به شقى العباد وما أفادوا وشر الناس من أشقى العبيدا

* * *

أمولد أحمد ذكراك طيب يفيض أريجه ندا وعودا
طلعت على الوجود وكان قفرا فماد الكون بساما سعيدا
وكان العرب فى غمرات ضعف فكنت النصر والفتح المجيدا
مخايل فيك لم يحجب سناها أتاحت للأذلاء الصعودا

عذيرك من قريش يزدهيها ردائك وأنت تمنحها الخلودا
بنيت لهم على الأيام مجدا تطاول لن يعيد ولن يبيدا
كذاك الجهل يصمى ما تولى وكان الجهل شيطانا مريدا

***

بنفسى سيد الثقلين تلقى رسالته التجهم والصدودا
أهذا النور تنكره عيون أهذا الحق يحتمل الجحودا ؟
سوافر من بديع الآى غر عن الأفكار حطمت القيودا
وعدل مثل حد السيف عمت شريعته المسود والمسودا
وأخلاق كما رقت شمال وداعبت الخمائل والورودا
وآلاء كما انهملت غيوث كفلن الأمن والعيش الرغيدا
عوارف ليس يحصيهن عد بهرن فلسن يقبلن المزيدا
غدا الاسلام منها فى جنود إذا عدوا الأسنة والجنودا

***

شفيت بذكر خير الخلق نفسى ولم أرد المديح ولا القصيدا
ولكن غنت الدنيا احتفاء بمولده فرددت النشيدا

عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

الحلم وما قيل فيه

الحلم ضبط النفس عند ثوران الغضب . وقد قالت الحكماء : ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الجواد إلا فى العسرة ، والشجاع إلا فى الحرب ، والحليم إلا فى الغضب .
وقال الشاعر :

ليست الأحلام فى حال الرضا إنما الاحلام فى حال الغضب

وقال آخر :

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

مولد محمد خاتم المرسلين

تهيئة العلم والفلسفة العقول والقلوب لقبول الاسلام دينا عالميا

مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ »

إننا معشر المسلمين نستقبل هذا العيد فى كل عام بقلوب يعمرها الحب والإكبار لصاحبه صلى الله عليه وسلم ، فنحتفل به فى مشارق الأرض ومغاربها ، لما حصلنا بهديه من هداية ، وما بلغنا من كرامة ، وليس العهد الذى يكون فيه هذا اليوم عيدا للبشرية كافة ببعيد ، فإن العقل الذى أطلقه محمد صلى الله عليه وسلم من إساره ، والعلم الذى حرره من ربقته ، لا يفتآن يعملان ، على غير قصد منهما ، على لفت الأنظار الى النور الذى جاء به . ومتى أتما العمل الذى بدآه من إلقاء نير التقليد الأعمى عن الأعناق ، ورفع حجاب التعصب المذموم عن الصدور ، وإزالة غشاوة الجهالة الوراثية عن العيون ، تجلت للناس الآية الكبرى من آيات الروح المحمدية العالمية ، فوجد الناس أنفسهم مسلمين ، ولسان أمثلهم يقول كما قال العبقرى الألمانى (جوت) قبل نحو قرن من الزمان : « إذا كان الاسلام هو هذا فنحن إذن فيه » ، وسيكون هذا تحقيقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » .

نعم : إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه الى الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الانسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يحتاج لبيان ، فإليك :

قُذِف بالانسان الى هـذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عَمِياً عن أسراره كل العماية ، ولولا أن الخالق جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات لمات ظمأ وسَغَبا ، ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرُب من الضـوارى التى كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التى كانت تنصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة ، ولكنه وهب عقلا ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيرا حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة ، ثم ما برح يرقى حتى أسّس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات العجيبة ، وهـو اليوم يحدّث نفسه بالصعود الى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم فى نواميس الحياة .

هـذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الانسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للانسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشّى الانسان فى هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط فى نظره ، الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عارا عليه ، وسقوطا لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، عاداً ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هـذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية تأسس الأصول الآتية :

(أولا) زوال آثار الوراثات الدينية .

(ثانيا) امحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى.

(رابعا) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة.

(خامسا) الميل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم، والجاعلة إياها شيعا.

(سادسا) الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف أو فرد من الأفراد.

هذه الأصول الستة لا محيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية. وقد تولدت فعلا وصارت جزءا من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية، وهى لا تزال بعيدة عن الذهن، لأسباب اقتصادية، ولكن لا بد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة.

فاذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل، والخلاص من آثار الوراثة، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية للعقلية البشرية، تبين له أنه فى صميم الاسلام، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته، وإعلاء كلمته، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة، والوساوس المعطلة.

هذا مصداق الآية القرآنية التى أتينا بها فى صدر هذا البحث. وكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ولَيُمكننّ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم، ولَيُبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا. الآية»، وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقونهم شذر مذر، فآتاهم الله خلافة الأرض، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها، كذلك ستُصدّق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم، حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق، وقد ظهرت بوادر

ثابت فى أقوال الكثيرين من كبار العلماء فى الغرب ، وقد رأى بعضهم أن أوربا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الاسلام دينا .

لو كان أحد المسلمين قال هذا القول لاعتبر منه مبالغة فى التفاؤل ، ولكن الذى قاله الكاتب الفيلسوف الأرلندى (برنارد شو) ، وهو لم يقله ليهزأ به قارئوه ، ويحسبوه من سقطاته ، ولكنه قاله بعد اقتناع به . وأى شىء يعدّ بعيدا فيه ؟ أليست الأصول السبعة التى أثبتناها هنا ، وهى أخص نتائج الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الاسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلف الاسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ، وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ومن كل سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فاذا ثبتت له هذه التصفية ، ولقن أمور الدين ، أُمر أن يتعقلها ، وأن ينظر فى أدلتها ، وليس له أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ، وكُلّف أن يتأمل فى آيات الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخلق ، وأن يمحص كل ما يحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيتيه ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يسخره فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ويحاسب حتى على جيشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك ما يبين هذه الأصول منه ، فاليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : «فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرةَ الله التى فَطَر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» . وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة ، فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده ، فقال : «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه» ، أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق ، ولكن أبويه ينقشان فى عقله من صور ما يغيّران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم اتباع الظنون والأوهام : « إن يتّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرُصون » وقال : « وما يتّبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : « ولا تتّبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله » .

وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعقلون » وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال تعالى فى ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : « إنّ شرّ الدواب عند الله الصم البُكم الذين لا يعقلون » . وقال : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » . وقال : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . وقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحاب السعير » .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير : « كل نفس بما كسبت رهينة » . وقال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » . وقال : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل (أى فداء) » .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : « وقالوا (أى يوم القيامة) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . وقال : « إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا (أى يوم القيامة) من الذين اتبَعوا ورأَوُا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبَعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يُريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : « ومَن يدْع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . وقال فى وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » ، وقال : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

هـذا دستور دينى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمن لم يكن فيه لدستور أيا كان نوعه دولة فى الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية . أما من الناحية الدينية فقد كان لا يعرف أحد أن للاعتقاد دستورا قط . فكان الناس من أمر السياسة غرقى الى يآفيخهم فى حكومة الفرد ، لا يعرفون لهم حقوقا عليها ، ولا وجودا معها . بادت دساتير اليونان والرومان قبل عهد البعثة المحمدية بأكثر من ألف سنة ، فكانت الأمم تجهل أنها كانت لها جمهوريات ومجالس نيابية ودساتير مدونة . وكانوا من أمر العلم فى غيهبة مظلمة لا يعرفون له حفظة غير زعمائهم الدينيين ، وناهيك بهم فى هذا الموطن .

أما أمر الدين فكان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » ، كما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج لدليل ، فعبارات كانت تجر الى النار المحرقة فى تنانير أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الدينى والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها على بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل ولا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم الى نقيضه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبى صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور ، فقال تعالى : « وقالوا يا أيها الذى نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون » . وقالوا : « أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » ؟ فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الالهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى

عليها المسلمون في أول الاسلام دخول أمم برمتها فيه، بغير إجبار، بل بغير دعاية منظمة، والعقول لم تصقلها العلوم، والنفوس لم توقظها الشكوك، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الاسلام حق معرفته، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمي فحسب، ولكن أصوله الأولية هي ذلك الدستور نفسه، بالغاً كل ما يمكن أن يصل اليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر، وحركات الضمائر ؟

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم في الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين، على حين أنه قد فرغ منها، ولم يعد يخطرها بباله، وقد محض نفسه للبحوث المادية، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية.

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول، فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها، وإن كان لا بد من الاستشهاد بأقوال أقطابه، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنري بيرانجيه) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها ».

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخي قد حطم كل الأشكال المتحجرة في الأديان، فانه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية، بل اعترف باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة، تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه. ففي كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في أخس الأديان الوثنية، كما هي في أرقى المذاهب الروحانية. هذه

هى الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية ، تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المحال أن يطفئها، ولكنه سينقلها الى المستقبل» .

ثم قال :

«إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين ، كجان جاك روسو ، ولمرتين ، ولامنيه ، وميشليه ، وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان ،وجيو، وشوريه، وسبتييه ،قد أمدوها بقوة جديدة عظيمة».

نقول : ما هى هذه الديانة الفطرية التى يعتقد المفكرون فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

نأتيك بها عن لسان أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف (كارو) فقد قال فى كتابه : (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خالق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى ؛ ووجود روح للانسان متصفة بالإدراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه . وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ،إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها الى المادة الصماء ؛ والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيق وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . وأخيراً الاعتراف بناموس الترقى ، ولكن بدون فصل ترقى الانسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » انتهى

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين غير محاولة الرجوع

لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى آت لا محالة ، مثله كمثل كل ما يدعو الى وجوده القلب والعقل ، والدين الفطرى هو الاسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله ، فإذا آنس الناس تلكؤا فى التمشى اليه ، فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا ، ونفى الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد ما لا يعقل ، وإذ ذاك تحل الروح الاسلامية فى العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الراهن .

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرنجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشىء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى الأديان آجلا أو عاجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك ، لأنه يجد الدين الأخير منها ، هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه فى قوله : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تدعو اليه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات ، مشروط فيه الرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير ورقى ، فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين ، وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدلٍّ ، فهو فى شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا عاما للبشر كافة ، فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ؟ وهل للبشر محيد عنهما مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فإن كان فى العالم أصلان كلما أمعنت فى البعد عنهما ، ازددت قربا منهما ، فهما الفطرة والعقل .

أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : إن اليوم الذى يحتفل فيه العالم أجمع بميلاد خاتم المرسلين ليس ببعيد ؟

فاللهم صل وسلم وبارك على محمـــــد فى الآخرين ، كما صليت وسلمت وباركت على ابراهيم فى الأولين ، إنك حميد مجيد :

محمد فريد وجدى

ذم البخل

قال الله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى (أى للفضيلة الموجبة لليسر) ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى (أى للرذيلة المؤدية للعسر) .

وقال تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » . نقول سيطوقون ما بخلوا به : أى سيلزمون به لزوم الطوق فى الأعناق .

ومما هو جدير بالتدبر للقارئ فى هذه الآية قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم » فإن فى صميمها علما جما . ذلك أن الذى يضن بماله عن الانفاق يخيل اليه أن ذلك داع الى نمائه ، والواقع أنه داع الى نفاده . فإن الذين يضنون بأموالهم عن بذلها فى المنافع العامة تضعف جماعاتهم وتذل حيال الجماعات المزاحمة لها ، فيقتضى نظام الوجود أن يستولى الأقوى على الأضعف ويمتص عصارته ، فلا يبقى له ولا يذر . ومن شاء الدليل فليتأمل الأمم التى يبذل آحادها الملايين فى سبيل المرافق العامة ، تجدهم لا يزدادون إلا ثروة ، خلافا لأفراد الجماعات الذين يدخرون المال ولا ينفقونه ، فتراهم يتدهورون جماهير وفرادى فى [illegible] العامة . [illegible] الأسرة فيها [illegible] بثروته [illegible] نفسه ، خلافه عليها من [illegible] .

دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) :

الدعوة الى الاتحاد شعار كل مصلح ، ومقصد كل ناصح ، وغاية كل واعظ ومرشد ، وقلما تجد امرءا يدعو الى فضيلة ، بل قلما تجد من يدعو الى سلوك خطة ، وانتهاج شرعة مهما قام فى وجهه مخالف وعانده معاند ، إلا وهو يدعو الى الاتحاد . غير أن الدعاة المختلفين إذا سئلوا : علام يتحد الناس ؟ فسر كل منهم الاتحاد الذى يدعو اليه بالاندماج فى خطته والاذعان لرأيه وانتهاج منهجه ، ويقابله معاندوه بمثل دعوته ، ويفسرون الاتحاد فى رأيهم بالاقبال على ما هم عليه وترك ما عداه ، فتراهم دائما فى أمر مريج ، وترى دعوتهم غالبا تذهب أدراج الرياح ، وتراهم قد اتحدوا فى أن لا يتحدوا . ذلك أن كلا منهم حين يدعو الى الاتحاد لم يترك أنانيته ، ولم يقصد بالاتحاد أكثر من أن يندمج رأى غيره فى رأيه ويترك كل امرئ ما عنده الى ما عند ذلك الداعى ، وأنى له ذلك وعند كل منهم من الاعتداد بنفسه والحرص على تقديس رأيه ما عند صاحبه سواء بسواء ؟

فهل كانت دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد على هذا الوجه الذى يتكرر له الفشل وحق له أن يفشل وأن يفشل ؟؟ لا لا ، ما كان مسلكه صلى الله عليه وسلم هذا المسلك ، ولا نحا هذا المنحى ، ولكنه سلك مسلكا نهجا ، وانتهج طريقا معبدا ، أوضحه بالبينات والهدى ، ودعا الجميع الى السير فيه عن بينة وبصيرة ، وبرهن عنه بالبرهان الساطع والحجة الدامغة ، فاذا السالكون فيه قد اتحدوا من تلقاء أنفسهم ، وإذا هم قلب واحد واتجاه واحد ، ووجدان واحد ، وإذا هم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وإذا هم كالبنيان يشد بعضه بعضا .

هاك شريعته التى أوحاها اليه ربه وأمره أن يبلغها لكافة الخلائق ، فانظر اليها فى أصل عقيدتها وفروع عباداتها وأنواع معاملاتها ومظاهر أخلاقها ، انظر الى كل قسم من ذلك على حدة ثم استوضحها جملة واحدة ، وانظر اليها متناسقة وبعد ذلك احكم عليها بما تراه من حكم عادل فى جملتها وتفصيلها .

تامل فى خطابه المعاندين المعترين بما أوتوا من كتاب أنزل عليهم ، فهم لا ينفكون يدعون

اليه لا لشئ سوى أن فى يدهم كتابا، فلا تسمح نفوسهم بان يتركوه الى غيره مهما وضح الحق وقامت الحجة، انظر الى خطابه لهم تجده يقول فيما أوحى اليه ربه وأمره به: «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله» ثم يقول عقبها: «فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» فماذا ترى فى هذا؟ تراه وقد اطرح الأنانية، واطرح استمساك كل واحد بما عنده لمجرد أنه عنده، وقال: «تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم» لا على وجه أنكم خضعتم لنا أو أنا خضعنا لكم، وإنما على أنا جميعاً خضعنا لاله واحد لا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئاً، فنمتثل الأمر لأنه أمره لا لأنه أمر بعضنا بعضاً، فاذا كان هذا الأمر قد علمتموه عن طريقنا فلأنه قد أمرنا ان نبلغكموه، وأيدنا وصدقنا فى دعوانا بما شاهدتموه من آيات بينة وحجة قاطعة لا تجد نفوسكم الى الطعن فيها سبيلا، ولا يجد الشك معها الى النفوس المفكرة مسلكا، فماذا يحول بينكم وبين أمر ربكم؟ تعالوا وأطيعوا الرسول لا لأنه هو فلان بن فلان، وإنما لأنه رسول الله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وعلى هذا تجد الأنانية التى من شأنها أن تحول بين المرء وبين الاذعان للدعوة والاستجابة لها قد زالت وقضى عليها.

وينخرط فى هذا السلك ما تقرأ فى قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ماذا تفهم منها بعد التأمل الصحيح والتفكر الصادق؟ إنك حين تتأمل فيها وتفهمها حق فهمها تجدها تناديك باطراح الأنانية وإظهار أن المسألة ليست مسألة: نحن، وأنتم، وهم، وأمثال ذلك مما يستمسك فيه كل فريق بما عنده، حتى يقال عنهم: كل حزب بما لديهم فرحون، وإنما الأمر أمر القانون العام والحجة الواضحة التى يجب أن تكون الحكم الفاصل بين الجميع، وهو أن من صدق عليه أنه آمن بالله حق الايمان، وآمن بيوم الجزاء حيث لا يفيد المرء إلا ما عمل، وقام بالعمل الصالح حق القيام، فهو الذى لا خوف عليه ولا حزن يلحقه، فأينما يتحقق فيه هذا الوصف فهو صاحب هذا الحكم حتما، هل تجد من ينفر من حكم هذه القضية الصادقة العادلة؟ كلا، اذاً فتعالوا نعرض إيماننا بالله وإيمانكم الذى تزعمون، على محك النظر الصحيح. إنا نجد أنفسنا قد أسلمنا أمرنا لله ورضينا بكل ما حكم الله، وامتثلنا كل ما أمرنا به الله، ولكنكم أنتم اتخذتم إلهكم أهواءكم، وقلتم: «إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا» وآمنتم ببعض وكفرتم ببعض، إذاً ليس الممتثل عندكم هو أمر الله، وليس إيمانكم هو الايمان بالله، وإلا لاطرد الامتثال فى كل ما قامت الحجة عليه أنه أمر من الله، وإذا فأنتم لم تؤمنوا حق الايمان باليوم الآخر، وإلا لحذرتم خطر الجزاء العدل لمن خالف أمر ربه مالك يوم الدين، وإذا فلم يكن القصد فى عملكم الى الصالحات، ولا صالح الا ما رضيه لكم ربكم وأمركم به المهيمن عليكم، وإنما أنتم تجيبون داعى أهوائكم وتقومون بما مالت اليه نفوسكم.

هذا نموذج واضح جد الوضوح فى بيان كيفية الدعوة الى الله ، وأنها كانت تظهر على وجه اطراح الأنانية ، وأنها إنما كانت توجه الى الحق من حيث هو الحق بقطع النظر عمن قام به ودعا اليه ، وهى أشبه شىء بقولهم : انظر الى مايقال لا الى من قال . وهل بعد هذا منهج يرفع الخلاف وأسبابه ، ويمكن للاتحاد فى النفوس فضل تمكين ؟

تعال وانظر معى بعد ذلك فى فروع العبادات ، تجدها قد بنيت على ما يثبت روح الاتحاد فى القلوب ويمكنها من النفوس . وها نحن أولاء نجلوها عليك فى أركان الاسلام الخمسة :

١ — « شهادة أن لا إله إلا الله » :

ماذا تقول فى قوم جزموا جزم اليقين ، وعلموا علم الشهود أن إلههم جميعا واحد لا يعبدون إلا إياه ، فهم يشعرون جميعا بأنهم خاضعون أمام عظمة واحدة هى مصدر وجودهم ، ومنشأ ما هم فيه من نعم جلت أو دقت ؟ إنها أكبر داع الى توحيد قلوبهم ، وتوحيد اتجاههم ، وتوحيد غايتهم ، وهى الفوز بالزلفى إليه واكتساب مرضاته .

٢ — « إقام الصلاة » :

ماذا تشهد فى جموع متصافة متراصة كالبنيان تنطق بلسان واحد « الله أكبر » وتقوم فى وقت واحد بتحميده وتمجيده ، وتوجه اليه خالص العبادة ، وتسأله كلها فى آن واحد أن يمنحها معونته ، ويهديها اليه الصراط المستقيم ، فاذا ركعت خضوعا لعظمته كانت جميعا فى خضوعها ، وإذا استكانت أمام علو مجده كانت جميعا فى استكانتها وذلتها ، وإذا وقفت قانتة لربها مطيعة لأمره كانت كلها معا خاشعة قانتة ، ثم هى تتجه الى جهة واحدة أمرها ربها أن تتجه اليها ، أليس الاشتراك فى هذا كله مدعاة الى اتحاد الاتجاه ، واتحاد الأعمال والأقوال ، وبالتالى يثمر اتحاد القلوب ؟

٣ — « إيتاء الزكاة » :

ماذا تراه فى قوم تعاطفوا وتراحموا ، وشارك فقيرهم غنيهم فيما أنعم الله عليه به من رزق فأخذه من يده حلالا طيبا : هذا يؤدى أمانة ائتمنه الله عليها ، وهى حق الفقير فى ماله ، طيبة بها نفسه ، وهذا يتسلم وديعة من الوديع عن طيب خاطر فينفاصلان وكل منهما قد امتلأ قلبه محبة نحو أخيه : هذا بما استفاد من رزق ، وهذا بما كسب من أجر ، وكلاهما بما ساد بينهما من عطف ، أليس فى هذا أكبر داع الى اتحاد القلوب ؟

٤ — «صيام رمضان» :

بخ بخ ! تصور يارعاك الله قوما قد دعوا الى توحيد أذواقهم ووجداناتهم الخصوصية : فكلفوا أن يكفوا عن مشتهياتهم فى وقت واحد ، وأن يتناولوها فى وقت واحد ، كم يكون

بينهم من الشعور باتحاد الوجدان واتحاد الميول والاتحاد فى المنح والحرمان ؟ إن من جرب حالة قوم جمعتهم ظروف خاصة قاسوا فيها معا مرارة ما فى الحياة وأفرج عنهم دفعة واحدة فنعموا معا فى وقت واحد، يجد أنهم اعتبروا هذا الاشتراك جامعا بينهم لا يزالون يذكرونه طول حياتهم ولو صادفهم فى العمر مرة، فكيف وهذا يتكرر على المسلمين فى كل عام مرة بل فى كل عام ثلاثين مرة ؟ إن قليلا من الانتباه يجلو لك هذا المعنى بمنتهى الوضوح إذا كنت من المنصفين .

٥ — « حج البيت من استطاع اليه سبيلا » :

ناهيك بهذا المؤتمر العام يعقده المسلمون فى كل عام ليشهدوا منافع لهم، وليطوفوا بالبيت الحرام، هل يخفى عليك ما فيه من توكيد الرابط بينهم والوئام ؟ سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، والحمد لله الذى أنعم علينا بنعمة الايمان والاسلام !

أما إذا نظرت الى قسم المعاملات بين الناس فيكفيك منه اجتلاء ناحية عامة فيه، هى أنه بنى على العدل، ودعى فيه الى الفضل، وأى اتحاد يثبت من بين إقامة العدل وزيادة الفضل ؟ ارجع بنفسك أنت الى أثر هذين المبدأين الجليلين تعرف أنت بنفسك أكثر وأكثر مما نستطيع أن نسطره لك فى هذه الكلمة الوجيزة .

ولا يقتصر هذا على قسمة المعاملات المدنية، بل تجده ساريا فى باب روابط الأسرة والحياة المنزلية، انظر الى أحكام الزوجين وما دعوا اليه، واتل إن شئت قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ثم التفت الى باب نفقات الأقارب وما تضمنه من مغزى ربط القلوب وتحبيب أفراد الأسرة بعضهم لبعض، وتحبيب كل منهم أن يكون الباقى فى نعمة ويسار، إما ليكفى مؤنته أو ليستفيد معونته . بل انظر الى أحكام الجنايات والمقاصات تجد العدل فى قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وفى قوله تعالى : « فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » وتجد الفضل يتجلى فى قوله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » وتجدهما قد تجليا معا على وجه يأخذ بالألباب فى قوله جل شأنه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

هذا قليل من كثير من دواعى الاتحاد فى المعاملات، وكلما تأملت فى باب منها وجدت ما يملأ قلبك اقتناعا، ونفسك هدى ونورا . والاساس فيه كما قلنا تقرير العدل والترغيب فى الفضل، ولا يكون الفضل فضلا مثمرا إلا إذا نشأ عن رغبة واختيار .

فاذا أنت رجعت الى الأخلاق التى بعث صلى الله عليه وسلم لتتميمها فكم يتجلى لك هذا واضحاً جلياً . اقرأ إن شئت قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ومتى تعارفوا تآلفوا، واقرأ ما يشبهها من آيات فى سورة الحجرات .

وليتك تراجع ما نشرناه على صفحات هذه المجلة من تفسير هذه السورة الكريمة . واستعرض ما شئت من مثل حديث « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه الخ » وحديث « لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » الى غير ذلك مما لا يكاد يأتى عليه الحصر فى مثل هذه الكلمة .

نعم : لقد جاءت الدعوة الى الاتحاد ، وقررت عوامل تنميته فى النفوس مستفيضة منفشية فى كل أبواب الشريعة الغراء ، وليس لمعترض أن يقول : فما بالنا نرى المسلمين متفرقين إلا قليلا منهم ؟ فانا نجيبه بأن هذا كقولك : فما بالنا نرى الكثير من المسلمين قد تركوا العمل بأحكام دينهم وغرتهم ملاهى غيرهم ؟ والجواب عن هذا وذاك أن مرجع هذا الى نفوسهم واتباع أهوائهم ، لا لنقص فى ضوء دينهم ونور هديهم :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

نسأل الله أن يوفقنا برحمته الى اتباع هدى شريعته ، والعمل بسنة نبيه ، إنه هو الفعال لما يشاء ؟

ابراهيم الجبالى

فضيلة الحياء

روى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء من الايمان ، والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار » .

وقال بعض الحكماء : « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .

وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

يظن بعض الغفل أن الحياء ضعف فى النفس ، والحقيقة أن عدمه هو الضعف ، فان التوقح لا يزال يدفع صاحبه لغشيان المخجلات حتى يسقط اعتباره ، ومن انتهى الى هذه الدركة هلك لا محالة .

عظمته صلى الله عليه وسلم

وشيء من سيرته الباهرة وآياته الظاهرة

تعرف عظمة الرجل بتحليل نفسيته الكبيرة، وأخلاقه الرفيعة، ثم بآثاره الخالدة. ولا نجد نفسية أعظم من نفسيته عليه السلام ولا آثاراً كآثاره. وكل من تتبع شريف أحواله وما اشتملت عليه سيرة حياته، وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سياسته ولطف دعوته، ورفيع حكمته، وعلمه بجامع السعادات، وسوقه اليها بالوسائل المختلفة والطرق العجيبة التي تفوق كل ما جاء في حكمة الحكماء وسير العلماء، وما تم له من سياسة الخلق وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب الكريمة والشيم الحميدة، الى فنون العلوم المختلفة دون تعليم ولا ممارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس الى العلماء والحكماء، بل هو نبي أمي لم يعرف شيئاً من ذلك، حتى شرح الله صدره وأبان أمره، وعلمه مالم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً. وقد أشير الى ذلك بقوله تعالى: «وما كنتَ تتلو مِن قبله مِن كتاب ولا تخُطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون». «وكذلك أوحينا إليك رُوحا من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لَتهدي الى صراط مستقيم». «هو الذي بَعث في الأُمّيّين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبلُ لَفي ضلال مبين». «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

نقول: كل من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم دراسة مدققة، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة تامة، لم يخالجه أقل ريب في أنه واسطة عقد الكمال، وأنه سيد الأولين والآخرين، وأفضل الخلق أجمعين. على أن من يريد بيان كماله واستقصاء أحواله فإنما يحاول عدّ ما في البحر من درر، أو استقصاء ما في السماء من نجوم:

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

ولنقرب لك ذلك ببعض التقريب ، ولنفصله شيئا من التفصيل ، فنقول :

إن فيما أتى به من الأوامر الحكيمة التي تكفل مصالح الدنيا والآخرة ، وفي إرشاده الى ما يكفل سعادة الأبد وراحة المجتمع وصفاء العيش ، وفيما بيّنه من الحقائق وهدى الخلائق ، وفيما أتى به مما يعرفه العقل جملة ويعجز عنه تفصيلا ـ ما يعلم به المنصف البصير أنه من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باين بها الخلق ، فكل ما يعلم الناس أنه حق وأنه خير فهو أعلم منهم به سوهو بعد ذلك أنصح الخلق للخلق ، وأبر الناس بالناس ، وأصدقهم فيما يقول ، وأقومهم فيما يفعل .

وبعبارة أخرى نقول : إنه جمع مالم يجتمع لأحد ، ولم يعهد مثله في السنن الطبيعية لإنسان . فإن من نظر الى تدبيره الحروب مثلا وعرف أنه أتى فيها بأحسن الخطط ، قال إنه رجل حرب وجّه كل همه وفكره لمجالدة الأعداء ورسم خطط الحروب ، ومن كان كذلك لا يكاد يحسن غير ذلك .

فإذا نظرت الى زهده وعبادته حتى تورمت قدماه ، وكان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء في الصلاة ، وكان يطيل السجود حتى تظن عائشة أنه قد مات ، تقول إنه رجل ترك الدنيا وما فيها ، فهو جاهل بها لا يحسن تدبيرها ولا العمل لها بوجه من الوجوه ، فضلا عن إعداد الوسائل لقوم جهال متفرقين متوحشين لأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، تَغلِب ، ولا تُغلَب وتَقهر ولا تقهر ، ما دامت متمسكة بما جاء به .

وإذا نظرت الى وعظه الذي يأخذ بمجامع القلوب ، قلت إنه لا يحسن غير ذلك .

وإذا نظرت الى حسن ترتيبه وتعليمه الذي جعل السيدة عائشة تكون من أعلم العلماء ، بحيث تجرؤ على أن تخطىء عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وهم من أكبر الصحابة وأعلمهم ، وقد مات عنها وهي بنت ثماني عشرة سنة ، وقد صار بفضل هذه التربية الحكيمة وتلك الأساليب العجيبة أبو هريرة أكبر من روينا عنه الشريعة في أربع سنين .

إذا نظرت الى ذلك كله قلت إنه من أكبر أساتذة علم النفس، حيث جاء بتلك النتائج الباهرة التي لم تعرف لأحد من علماء التربية وأساتذة علم الاجتماع حتى الآن. بل نقول: كان يجيئه الأعرابي فلا يمكث معه إلا قليلا من الزمن حتى يرجع عالما في نفسه معلما لقومه.

وإذا صادفك التأييد ونظرت الى ما كان من تأثيره في الأمة العربية، رأيت العجب العجاب، فقد تبدلت طبائع العرب على اختلاف قبائلهم ونزعاتهم بهدايته صلى الله عليه وسلم: من الظلم الى العدل، ومن الجهل الى العلم، ومن الفسق الفاحش الى العدل المعظم الذي لم يبلغه أعظم الفلاسفة، وقد أسقطوا كلهم أولهم وآخرهم بفضل تعاليمه صلى الله عليه وسلم طلب الثأر، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له، صحبة الإخوة المتحابين دون خوف يجمعهم، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم، ولا مال يتعجلونه.

وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وليس يغيب عنك أن جمهور أتباعه غرباء من غير قومه، لم يمنهم بدنيا ولا وعدهم بملك، بل بايعهم على ألا ينازعوا الأمر أهله، وأن يوطنوا أنفسهم على الأثرة عليهم، ولم يفعل ذلك لأقاربه أنفسهم، ولا ترك لهم ميراثا يورث عنه. (وهذا لا ينكره أحد من الناس).

وخلاصة القول أنه صلى الله عليه وسلم لم يشغله ظاهر عن باطن، ولا إصلاح الدنيا عن إصلاح الآخرة، ولا ما يهم النفوس والأبدان مما يتبع الأرواح والأسرار، ولا موجبات الغضب عن استعمال الحكمة (ولا غرو فهو ينظر في الأشياء بنظر الله فسيان حربه وسلامه).

ثم انظر بعد ذلك الى ما جاء به من مجامع السعادة للفرد والمجتمع، فتراه أوصاك بخاصتك من أهل بيتك وأقاربك، ثم أوصاك بجيرانك والأباعد عنك، ثم على المسلمين وأهل الذمة، ثم أوصى الرئيس أن يرحم المرءوس، والمرءوس أن يطيع الرئيس.

ومما ينبغي أن نعرفه من حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعمل الشدة فى موضعها والرحمة فى موضعها ، ولكنه متخلق بأخلاق الله القائل : «سبقت رحمتى غضبي». الى غير ذلك مما ينبغي أن يوضع فيه كتاب مخصوص . وهذه أنظار واسعة لا يتأتى فى العادة أن يحيط بها إنسان ، وحكمة عالية تضع الأشياء فى مواضعها بموازين القسط الدقيقة ، وأكثر الحكماء إن أصابوا التشريع لم يمكنهم استعمال الحكمة ولا القدرة عليها عند التنفيذ والتطبيق ، فقلّما يطابق العلم العمل ، وقلّما يطابق العمل الصواب ، وقلّما يستطيع الانسان الضغط على نفسه فى ظروف كثيرة ، وقلّما ينجو العقل من تلبيس الهوى وجهل النفس وسلطان الشهوة التى تزين القبيح حتى تغطى العقل بغطاء كثيف لا يكاد ينفذ منه بصره الى الحقيقة (حبك الشيء يعمى ويصم). وإذا لا يستمد العقل إلا من العاطفة ، وتكون هى المسيطرة عليه المملية له ، فلا ينظر إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها . وأولئك أرباب العواطف من الأحزاب المختلفة فى الدين والدنيا .

وبالجملة فسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقضى بتصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله حقا ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته عليه السلام لكفى . فإنه صلى الله عليه وسلم نشأ فى بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ، ولا خرج عن تلك البلاد إلا خرجتين : إحداهما الى الشام وهو صبي مع عمه الى أول أرض الشام ثم رجع ؛ والأخرى أيضا الى أول أرض الشام ولم يطل بها البقاء ، بل رجع بشهادة حبر من أحبار أهل الكتاب بنبوته عليه السلام وهو بحيرا الراهب ، وحبر آخر وهو نسطورا الراهب كما هو معروف .

وناهيك ما وصلت اليه أمته بفضل تلك التربية ، حتى إنها فى أقل من عشر سنين بعد وفاته فتحت أعظم ممالك الأرض إذ ذاك (مملكة الفرس ومملكة الرومان) . وفى أقل من قرن وصلت من آسيا الى الهند والصين ، ومن إفريقيا الى أرض مراكش ثم تخطتها الى أوربا فأسست بها تلك المملكة الفيحاء (مملكة الأندلس) ، ووصلت

الى بردو من أرض فرنسا ، الى غير ذلك مما دهش له التاريخ وعجب له فلاسفة أوربا ، وكل ذلك بفضل تلك التربية النبوية الحكيمة .

وقد قال جوستاف لوبون الفرنسى فى حقهم وهو من أعظم فلاسفة أوربا : « إن ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شذ العرب فوصلوا الى الاستقلال فى جيل واحد » . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .

وقد أذكرنى ذلك قول صاحب الهمزية فى أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

ثم نقول بعد ذلك :

إن قوانين العالم المتمدين الى الآن لم تصل الى تلك الغايات السامية ، ولا أتت بتلك السعادة المنشودة ، ولا أورثتنا هناء ولا صفاء . بل يمكننا أن نقول :

إن تلك القوانين وهاتيك المدنيات الفاسقة مازادت العالم إلا شقاء وبلاء . على أن سبب نهضتهم من كبوتهم واستيقاظهم من نومهم وإنقاذهم من جهالتهم إنما هو علم المسلمين والاحتكاك بهم كما هو معروف من تاريخ الأندلس وتاريخ الكنيسة وتاريخ الحروب الصليبية ، فكانت القرون الوسطى أو القرون المظلمة على ما يقولون فى ذلك العهد عندهم لا عندنا (وإن كان شباننا بكل أسف لا يعرفون ذلك لأنهم جهلوا تاريخ آبائهم ونبغوا فيما جاء عن الأجانب فناء فيهم وافتتانا بهم ،) : فإن مدنيتهم لا تعنى إلا بالماديات . فمحورها الذى تدور عليه هو المادة ، فمنها يبدءون واليها ينتهون . أما إصلاح النفوس وسعادة الانسانية ، وراحة القلوب وهدوء الأفكار ، والتنعم بتلك الإحساسات الشريفة والملكات الفاضلة ، فهم بمعزل عنها ، بل سرت عدواهم الينا ، فأقفرت نفوسنا من فضائل ديننا وآداب أسلافنا ، ولم تصل أيدينا الى مثل دنياهم وقوتهم واتحادهم ونشاطهم ،

فأصبحنا مستعبدين وقد كنا السادة، وجاهلين وقد كنا العلماء، وأذلة وقد كنا الأعزاء؛ وقد شط بنا القلم، ولكنها نفثة مصدور، فلنرجع الى ما كنا فيه، فنقول:

إن تشريعه صلى الله عليه وسلم لم يصل اليه تشريع الى الآن وقد مضى عليه أربعة عشر قرنا تقريبا. ذلك التشريع الذي تكفّل بإصلاح النفوس والأبدان، وضمن سعادة الدنيا والآخرة، وحرّم على أبنائه أن يكونوا أذلاء، فقال: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وقال في وصفهم أيضا: «أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين»، وقال لهم بعد ما سلّحهم بتلك الأسلحة وحلّاهم بهاتيك المكارم: «كنتم خير أمّة أُخرِجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنهوْن عن المنكر وتؤمنون بالله». وقد قال في آية أخرى في وصفهم: «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعا سُجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا».

وما أبهر هذه الآية في نفسي: فإنها تشير على ما بها من إيجاز الى ما يجب أن تكون عليه الأمة مع أعدائها، وقد أشير الى ذلك بقوله: «أشداء على الكفار»، وإلى ما يجب أن يكون قانونها الداخلي بين أبنائها. وقد أشير الى ذلك بقوله: «رحماء بينهم»، وإلى ما يجب أن يكون بينهم وبين الله، وقد أشير الى ذلك بقوله: «تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا» فماذا بقي بعد هذا؟ أصلح ظواهرهم وبواطنهم، ثم أرشدهم الى ما يجب أن يعملوا مع أعدائهم، وما يجب أن يكونوا عليه فيما بينهم، وما يجب أن يتحلوا به أمام خالقهم. وكم للقرآن من إيجاز وإعجاز!

وقد أذكرني ذلك قول سديو الفرنسي: «لو وجد المصحف في فلاة لقلنا إنه كلام الله». وكم للمنصفين منهم من شهادات لدين الاسلام ونبي الاسلام!

ويلتحق بذلك معجزات طبية وعلمية لا يمكننا أن نشير إليها إلا إشارة وجيزة. فإن الذي حرّمه كلحم الخنزير مثلا تبيّن أن فيه ضررا كبيرا. فقد عرفوا الآن أن فيه ديدانا كثيرة، وأنه يولد الدودة الوحيدة. ووراء ذلك شيء كثير كالخمر الذي حرمته أمريكا لما عرفت أضراره الكثيرة (والخمر تكني عندنا بأم الخبائث).

ومن تلك الآيات العلية قول القرآن : «وأرسلنا الرياح لَوَاقِح » . وما عرف تلقيح الرياح للأشجار إلا من عهد قريب . وقوله : « ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتاب مبين » . ولم يكن فى ذلك العهد شىء أصغر من الذرة وإن كانت الميكروبات التى عرفناها أخيرا هى أصغر من الذرة . وكقوله : « ومن كلّ شىء خلقنا زوجين » ولم يعرف أن فى النباتات ذكرا وأنثى إلا منذ عهد قريب : «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وبعد : ففى القرآن من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه العجب ، حيث يعبر بالعبارات التى تساير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ فى تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لا لها ، ووُجدت هى أكثر انطباقا على ما قضى به العلم الممحص والاكتشاف الجديد ، مما يدهش اللب ، وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

أفلا يحق له أن يقول بعد ذلك : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ؟ وإنى أستحلفك بعلمك وإنصافك أن تنظر فى هذه الآية نظر الباحث المدقق حتى تعلم أن مثل ذلك التحدى لا يجوز أن يكون إلا من الله تعالى العالم بكافة الأشياء وما عليه عباده من القوى والقُدَر . ولا يتصور أن يقول ذلك مخلوق ولا يتحدى جميع الخلق بمثل هذا عاقل ؛ فإن العاقل لا يعرض نفسه للهزء والسخرية بتحدى الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ومن هذا القبيل فى الدلالة على صحة دعوته وصدق رسالته قوله : « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » ، وقوله فى حق أهل الكتاب : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . وليس يعقل أن يعتقد مثل عبد الله بن سلام وهو من أكبر علماء التوراة كذب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ثم يؤمن به ، أو يعتقد نصارى نجران

كذبه ثم لا يجيبوه الى المباهلة ، بل ليس من المعقول أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهانا على كذبه فيخاطبهم والتوراة بين أيديهم بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوبخهم ويقرعهم ويشافههم بأنهم يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . ولا من المتصور أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، إلى غير ذلك مما ينفرهم غاية التنفير ، ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم (والكاذب ضعيف حتى عند نفسه). ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول السفهاء وأكبر الجهلاء ولطمعت فيه أعداؤه ، وما أسرع ما كان ينتقض بناؤه . إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه .

آية أخرى (وما نريهم من آية الا هي أكبر من أختها) :

ومن عجيب أمره وبديع حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يأخذ القلوب الى الله تعالى ، ويملأ النفوس رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه ، ومع ذلك يرغب فى العمل المجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التى ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة ، كما قال فى حق الذين خدموا إخوانهم فى السفر فى يوم شديد الحر : إنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يجعل ذلك للصائمين المتعبدين فى ذلك اليوم . وقد ورد موقوفا أو مرفوعا : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وقال تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . ولكنه مع هذا حوّل كل شىء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شىء عند المسلمين طاعة بفضل هذا التعليم العالى ، وأصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا صلى الله عليه وسلم بذلك بين مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة على أتم الوجوه . وفى الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ، ودنايا الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له إن لم يكن ذلك فى الدنيا كان فى الآخرة .

وقد أذكرنى هذا قول بعض العلماء : لم يبق بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلاق فاسدة أصلا ، لأنه صلى الله عليه وسلم أبان لنا عن مصارفها كلها : من حرص وحسد ، وشر وبخل وخوف ، وكل صفة مذمومة . فمن أجراها على تلك المصارف عادت كلها مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم . فإذا صرفت مافيك من الحرص والطمع الى اكتساب الدرجات وفعل الطاعات ، وما فيك من الحسد والمنافسة الى النبوغ فى العلم والحكمة وإحراز الزلفى عند الله تعالى ، وما فيك من الغضب ومحبة الانتقام الى أعداء الله وبذل الوسع فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وما فيك من شهوة السرف الى صلة الأرحام وإغاثة الملهوف ومواساة الجيران والإخوان الخ الخ ، كنت شخص الفضل ومثال الكمال ، وعادت هذه الرذائل فضائل ، وتلك المنكرات وسيلة لأعظم الطاعات وعظيم الدرجات .

وانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم لمن ركع دون الصف : زادك الله حرصا ولا تعد . فعرفك بذلك فضيلة الحرص وأبان مصرفه الذى ينبغى أن يكون فيه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير ، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس » . فانظر كيف وجّه من فيه غريزة الحسد الى أى ناحية وصرفه عن بقية النواحى . وغريزة الغبطة التى يذكرها العلماء فى شرح هذا الحديث هى بعينها غريزة الحسد ، وإنما غايرتها بصرفها لغير مصرفها ، وتوجيهها الى غير وجهتها .

هذا وقد حثنا صلى الله عليه وسلم على التزام نقطة الوسط التى هى نقطة الكمال ، وحذرنا من الانحراف عنها الى الإفراط أو التفريط ، فتراه يقول : « والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواما » ويقول : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ، ويقول : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ،

ويقول : « إن الدين متين فأوغل فيه برفق » ويقول : « إن المنبَتَّ لا أرضاقطع ولا ظهرا أبقى » ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه العجالة .

وبعد : فإن الأمم التى يسمونها راقية لم تأتنا فى باب العدل والمساواة والحرية التى يتمدحون بها إلا بدعاوى مجـردة وقضايا كاذبة . وليس العهد ببعيد من تلك الطنطنة التى كانت لشروط الدكتور (ولسن) وما سارت عليه بعد ذلك جمعية الأمم التى تمثل خمسا وسبعين دولة ، وما يعانيه العالم من جراء عدالتها وإنصافها . فانظر ذلك وقارن بينه وبين ما يقول القرءان : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، وقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآنُ قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » وقـوله : « وإمّا تخافنّ من قـوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » ، وقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكّرون » الخ .

وانظر الى قصـة عمرو بن العاص وولده عند ما ضرب رجـلا بمصر من السوقة فشكاه لعمر بن الخطاب وقال : إنه ضربنى ، ثم قال : اذهب وأنا ابن الأكرمين . فأعطاه عمر الدرة وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين . فقارن بين هذا وبين ما تراه وتسمعه . وقد قال جوستاف لوبون : « لم يعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » كما قدمنا . ويعجبنى قول غاندى : « إن أوربا اليوم لا تمثل روح الله ولا روح المسيحية ، ولـكنها تمثل روح الشيطان ، وإنما يفلح الشيطان أكثر ما يفلح حينما تلوك شفتاه اسم الله ، وإن أوربا اليوم مسيحية بالاسم ، وفى الحقيقة لا إله عندها إلا إله المـال »

هذا وقد تعرف أن للفقراء نصيبا من الزكاة يأخذونه من الأغنياء قهرا بسيف الشريعة الاسلامية . يقابل هذا أن للأغنياء نصيبا من الربا فى مال الفقراء يأخذونه قهرا بسيف القوانين الأوربية . فقارن بين الأمرين ، ووازن بين الطريقتين :

ولعمري إن خروج هذا النبي الكريم الذي أتى بتلك السعادات كلها من تلك البيئة، وهي على أسوأ الخلال، معجزة كبرى، وآية عظمى لدى العظماء والحكماء.

ومن عجيب أمره وشريف خلاله التي خرقت السنن المعروفة، أنك ترى النفوس تتكبر وتتعاظم بأقل الأشياء، وتراه صلى الله عليه وسلم مع ذلك كله يتواضع شكرا لله، ومعرفة بعظمة الله، واعترافا بفضله عليه. وقد كان يطأطئ رأسه يوم فتح مكة تواضعا لله، حتى إن رأسه ليكاد يمس رحله. وكانت العجوز من نساء المدينة تكلمه في الطريق فيقف لها حتى تقضي ما أرادت منه، وربما انطلقت به الى حيث تريد. وكان ذلك من دلائل نبوته عند عدي بن حاتم، فإن ذلك من شأن الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا (بخلاف الملوك وأهل الدنيا).

آية أخرى هي أعجب من كل ما سمعت:

ومن عجيب أمره الذي يدهش الباحثين أنه يشير الى الأسرار الغامضة والعلوم العالية بما لا ينفر منه العامة، بل ينتفعون بظواهره وجها من الانتفاع، ويعرفه الخاصة، وربما كان خفيا لا يكشف إلا بعد زمن طويل كهذه المسائل التي كشفها العلم حديثا مما أشرنا الى بعضه، فوجدناها لا تنافي القرآن ولا تجافي ماجاء فيه، بل وجدناه أشار لها إشارة خفية أو ظاهرة، ولا نجده في مسألة من تلك المسائل صرح فيها بنص يقوم الدليل على خلافه، مع أن كل عالم وفيلسوف إذا أراد أن يبين ما في نفسه لم يمكنه أن يسلك هذه الطريقة التي تنفع العامة والخاصة جميعا، ولا يتسنى له أن يظفر بهذه العبارات التي لا تمجها أذواق العامة ولا تصادمها العلوم الفلسفية ولا المكتشفات المستقبلة. (ومن ذا الذي يكون فرحا بنتائج فكره وولائد عقله ثم لا يفصح عنه إفصاح المبتهجين به المتبجحين بالوصول اليه، فيكون محصورا في حدود ضيقة لا يتخطاها بوجه من الوجوه؟ اللهم إن هذا هو المعهود في البشر المعروف في نوع الانسان).

أما ذلك الذى ينطبق على ما يقرره العلم بعد مئات السنين ، وهو فى الوقت نفسه مشتمل على ما ينفع العامة ويفيدهم تطهيرا وتنويرا ، فلا يعقل إلا من العليم الحكيم. ولعمرى إنها لآية كبرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن عجيب أمره أنه نص على أن فى القرآن محكما ومتشابها، وأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم وقد أمرنا أن نتمسك بالمحكم ولا نتعرض للمتشابه ، فأدى بذلك حق العلم من جهة ، وحفظنا أن نقع فى الزيغ من جهة أخرى . وما ذا علينا أن نتوسع فى المتشابه أكثر مما قالوا . وبالضرورة لم ينزل ذلك المتشابه فى القرآن عبثا ، وحاشاه من العبث « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

فمن أكبر آيات القرءان أن كان فيه المحكمات والمتشابهات ، لأنه لو جاء على غير هذا الوجه لم يناسب من الأزمان إلا زمنا واحدا ، وقد جاء للأزمان كلها وللناس كلهم. وقد فتح بذلك فوق هذا كله باب التفكير والتأويل والأخذ والرد ، فارتقوا من العلم الى أسمى درجة ، ومن المنطق والحجة الى أرقى مكان . فكأنه لما أراد أن يعدنا الى هذه الغاية السامية وتلك الذروة الرفيعة ، كان الأمر على ما ذكرنا . وكم له من آية فى الحث على الفكر والنظر مما لا نطيل بذكره .

الخلاصة :

والخلاصة أن شريعته صلى الله عليه وسلم تشتمل على دعوة الخواص والعوام ، لأن المراد منها هداية كل منهما وانتفاعه بها على قدر استعداده « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وهى بعد ذلك بحر لا ساحل له . ولو جمعنا ما كتبه العلماء فى فقه الشريعة المحمدية ، وما قاله صلى الله عليه وسلم فى الآداب ومكارم الأخلاق ، وما كتبوه فى أصول الفقه وأصول الدين ، وما رووه عنه من أحاديث وما كتبوه فى سيرته ، وما دونوه فى علم الحديث دراية ورواية ، وما صنفوه فيما يتعلق بالقرءان الكريم

من تفسير وتأويل وما يلتحق بذلك كله، لملأ الوهاد والنجاد، ولناءت به السفن فضلا عن الإبل، وأظنك تعرف ذلك ولا تنكره. ولا بأس أن نسوق لك هنا شهادة الفيلسوف برنارد شو الانكليزى فى حقه صلى الله عليه وسلم :

شهادة برنارد شو الانكليزى :

قال الكاتب الكبير برنارد شو :

« كنت فى كل الأحيان ولا زلت أتناول دين محمد فأقدره تقديرا عظيما، وذلك لروحيته العجيبة وحيويته العظيمة. إنه الدين الوحيد الذى يملك القدرة على هداية الغير وملاءمة الأزمنة، فهو حرى لأن يكون دين الجميع فى كل دور وطور. ويجب على العالم دون شك أن يقدر ويعلق أهمية عظمى على ذلك.

« لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا وملائما لأوربا فى الوقت الحاضر. إن قساوسة القرون الوسطى إما لجهلهم المطبق وإما لتعصبهم الأعمى قد رسموا الدين الاسلامى بألوان سوداء مظلمة، وكانوا فى الحقيقة قد تطبعوا على كره محمد ومقت دينه الحنيف، لأن محمدا كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية. أما أنا فقد درست الدين الاسلامى وشخصية محمد، تلك الشخصية العظيمة اللامعة، فوجدت محمدا بعيدا عما يلحقونه به من التهم. ويجب أن يسمى فى الحقيقة مخلص الانسانية ومنقذها.

« إنى أعتقد أن رجلا مثله لو أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة وكان حاكما مطلقا، لتمكن أن يقود العالم أحسن القيادة، ولتمكن من تسيير العالم نحو طريق السعادة، وتمشيته نحو شاطىء العدل والسلام.

« إن أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وإنها بادئة فى عشق دينه وفلسفته، كما أنها ستبرىء العقيدة الاسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوربا فى القرون الوسطى. سيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه العالم دعائم السلام والسعادة، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات وفك المشاكل والعقد. إن كثيرا من مواطنى

ومن الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم محمد، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول: إن بوادر العصر الاسلامى الأوربي قريبة لا محالة ».

الكلمة الخامسة:

وآخر القول أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم، وأصغى الى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته الى ضبطهم، وتألفه أصناف بني الانسان وقوده إياهم الى طاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة، وبدائع تدابيره فى مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز العلماء عن إدراك دقائقها فى طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربى القح كان يراه فيقول: والله ما هذا بوجه كذاب: فكان يشهد له بالصدق بمجرد مشاهدته، فكيف من عرف أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده، لا سيما وقد علم أنه أمى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط فى طلب العلم؟ فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب، ومعرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية. فما أعظم غباوة من ينظر فى أحواله، ثم فى أقواله ثم فى أفعاله، ثم فى أخلاقه، ثم فى معجزاته، ثم فى استمرار شرعه إلى الآن، ثم فى انتشاره فى أقطار العالم، ثم يتمارى بعد ذلك فى صدقه وعلو منصبه الذى لم يصل إليه فيلسوف ولا نبى من أولى تاريخ العالم الى الآن. وأمامك تواريخ العظماء والحكماء فاستعرضها واحدا واحدا.

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه فى كل ما ورد وصدر:

ولنجعل آخر كلمتنا هذه الحديث الذى روى عن عائشة رضى الله عنها:

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن .

فانظر الى مثل قوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون الخ » . « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . « واصبر وما صبرك إلا بالله الخ » . « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » . « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » . « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا »

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان عملا بمقتضى الحال ونظرا الى ضيق المجال ، ولندع القرآن يثنى عليه فى مثل قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . « وكان فضل الله عليك عظيما » . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

أسأل الله أن يجعلنا من عارفى قدره ، المتمسكين بسنته ، المتشرفين بعظيم محبته بمنه وكرمه :

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

إذا احتفلت الأمم الحية بميلاد عظمائها لما قدموه لها من حسنات معدودة ، وأسباب للسعادة محدودة ، فان منشأ هذه الحفاوة هو ما أودع فيهم من سر العظمة ، وما عرف عنهم من معانى البطولة .

ولما كانت عظمة « محمد » صلى الله عليه وسلم لا ساحل لها ، وما أسداه للمجتمع يعدو الحصر ، وجب أن يكون له فى كل يوم عيد ، وفى كل طلعة شمس حفاوة ، لأن كل يوم قضاه فى هذه الحياة كان خيرا وبركة على العالم أجمع ، وكل لحظة مرت به وهو فى هذه الدار قدم فيها للانسانية من ضروب السعادة ما برحت تنعم بثمارها ، ومن ألوان النعيم ما زالت تتقلب فى بحبوحتها . وإنى سائر بالقارئ على ناحية خصبة من نواحى هذه الشخصية العامرة بالعظمة ، ويكفيها جلالا أنها أبرز ناحية من نواحى العظمة الالهية التى تجلت بأبهى صورها فى هذه الشخصية المحمدية ، ولله در البوصيرى إذ يقول :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وهذه الناحية هى :

فى غرب القارة الاسيوية رقعة من الأرض واسعة قاحلة ماحلة ، تغطيها رمال مترامية الأطراف ، تخترقها الجبال الممتدة من الجنوب الى الشمال ، صهرتها حرارة الشمس المسلطة عليها آلاف السنين ، وصبغتها الايام والليالى بألوان مختلفة ، فمن جبالها جدد بيض ، وحمر مختلف ألوانه ، وغرابيب سود ، يقضى الانسان فيها حياته لا تقع عينه على نهر يجرى ، ولا على ماء إلا فى أعماق الآبار وساعة نزول الامطار .

يتوسط هذه الرقعة المقفرة بلد قديم يدعى « مكة » إذا علوت ظهر هذا البلد ، وصعدت النظر فيما حولك ، لا ترى إلا رمالا وجبالا ، وإذا سرت منها شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا حتى أعياك السير الليالى والشهور ، لا يقع ناظرك إلا على ما هو طبعى لا يد للصنعة فيه ، فلا مدارس ولا جامعات ، ولا معامل ولا مصانع ، ولا أثر للحضارة ولا معالم للعمران ، يقطن هذا البلد وما حوله أمة عربية ، نزحت اليه من عهد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

انتصف القرن السادس الميلادى ، وهذه الأمة العربية خامدة ، خاملة متفرقة متنابذة ، تتناهبها الفرس والروم ، يسخرها كل منهما لأغراضه ، تخوض غمار الفوضى ، وتضرب فى فيافى الجهالة ، لا تعرف للحضارة معنى ، ولا يربطها بالنظام سبب ، فكل مظاهر الحضارة

بعيد عنها ، فلا نقود باسمها مضروبة ، ولا صناعة لها معهودة ، ولا قوانين تضبطها فى تسيير أمورها ، فكانت تتعامل بنقود الفرس والروم ، وتستعين ببضاعتهما حتى فى بناء الكعبة المقدسة ، وترى الصناعة عارا تتهاجى به فى خطبها وأشعارها ، وتخضع فى تسيير أمورها للغلبة والقوة ، فالرجل الذى يسودهم هو الذى يجمع بين الشجاعة والكرم والثروة والعدد .

جمعت تلك الأمة العربية الى ما تقدم انغماسا فى الفساد ، وسبحا فى الفوضى ، وانتهاكا للحرمات ، وارتكابا لأفظع الجرائم ، دماء تسفك ، وأموال تسلب ، وفتيات على البغاء تكره ، وبنات صغيرات تدفن على الحياة تحت أطباق الرمال ، وتهالك على الخمور والميسر ، الى حد جعلهم يعدون البذل فى سبيلهما من دواعى الكرم والسخاء .

جمعت العرب الى كل هذه الفوضى فى تصرفاتها انتكاسا فى عقائدها ، تنحت من الجبال أحجارا بيدها ، وتنصبها فوق الكعبة آلهة تعبدها ، تنحر لها الذبائح ، وتقدم لها النذور والقرابين .

ومع أن المعروف المرتكز فى طبائع الناس ، أن الانسان لايعبد إلا من يرجو خيره أو يخشى عذابه ، فقد بلغ الجهل بهؤلاء القوم ، أنهم يأملون الخير ويخشون الضر فى قطعة من الحلوى ، يصنعونها تمثالا بأيدهم متى شاءوا وكيف شاءوا ، ثم يتقربون بها الى الله زلفى ، ثم يأكلونها إذا جاعوا .

فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وفى هذا البلد « مكة » تزوج فتى من أشراف قريش يقال له عبد الله بن عبد المطلب ، بسيدة من كرائم القرشيات ، هى آمنة بنت وهب الزهرية ، ولما بنى بها لم يطل مقامه معها حتى رحل فى تجارة له الى الشام ، وبينما هو راجع وافته منيته بالمدينة ، وكانت امرأته تحمل فى بطنها جنينا قد مضى على حمله شهران .

وفى صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الموافق لعشرين من شهر ابريل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وضعت السيدة آمنة مولودا جميل الوجه ، أزهر اللون ، أدعج العينين ، أقنى الانف ، واسع الجبين ، فسيح الصدر ، ضخم العظام ، رحب الكفين والقدمين ، فشمل الفرح والسرور آمنة ومن حولها ، فأسرعت بارسال من يحمل البشرى الى جده عبد المطلب الذى كان جالسا بجوار الكعبة فى انتظار من يبشره بما يخفف عنه لوعة الحزن التى أصابته بموت ولده غريبا صغيرا ، وكانت سن عبد المطلب وقتئذ تبلغ مائة وست عشرة سنة ، فلما أن جاءه البشير ظهر السرور على وجهه ، وسرى ماء الحياة فى جسمه وقال : سموه « محمدا » .

وهو اسم لم تعهده العرب من قبل ، ولعله قصد بهذا الاسم الخير ، والتفاؤل بأن يكون

هذا المولود محل حمد الناس وثنائهم ، فحقق الله الذى أجرى هذا الاسم على لسانه تفاؤله ، ورزق هذا المولود الدرجة الرفيعة والمقام المحمود .

مكث محمد مع أمه ثلاثة أيام ، ثم استرضعته حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب من هوازن المقيمة ببادية مكة ، فأقام مسترضعا فيهم نحو أربع سنين ، ثم رجع الى أمه معافى سليما .

وفى السنة السادسة من عمره عليه السلام ، ذهبت به أمه الى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار ، وبينما هى عائدة به أدركتها منيتها فى الطريق بالأبواء « قرية بين مكة والمدينة » .

فحضنته بعد امه جارية أبيه « أم أيمن » وكفله جده عبد المطلب . ولما بلغ من العمر ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب وكفله عمه أبو طالب ، وكان أبو طالب رجلا قليل المال ، فكان عليه السلام مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن الصغائر التى يتعلق بها الأطفال عادة ، قالت « أم أيمن » حاضنته : كان إذا قدم الطعام وتسابق اليه الأطفال رزينا عفيفا يقنع بما تيسر له .

ولما بلغت سنه اثنتى عشرة سنة وأراد عمه وكفيله أبو طالب السفر بتجارة الى الشام ، تعلق به عليه السلام ، وشق عليه فراق عمه ، فحن له قلب عمه واصطحبه معه ، وهذه أول رحلة له الى الشام ، ولم يطل فيها غيابهم كثيرا .

ولما بلغ خمسا وعشرين سنة سافر للشام للمرة الثانية ، وذلك أن خديجة بنت خويلد الاسدى كانت سيدة ذات شرف عظيم فى قومها ، وكانت غنية تتجر فى تجارة واسعة ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم فيه ، فلما سمعت عن محمد وأمانته وصدقه مالم تعهده فى غيره حتى اشتهر بين قومه بالصادق الأمين ، استأجرته ليخرج فى مالها الى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحا ربحا عظيما ، وتجلى لميسرة من أمانته عليه السلام وشدة محافظته على ما بيده من المال ، ما حببه الى قلبه ، وجعله يقص ما رأى على سيدته بعد عودته .

فرأت خديجة بصائب تدبيرها أن تتخذه لها زوجا ليكفيها تقلب مالها بين أيدى رجال قد لا تتوفر فيهم شروط الأمانة ، وكانت سنه حينئذ خمسا وعشرين سنة وسنها أربعين سنة ، فأرسلت اليه تخطبه لنفسها فقبل .

وذهب مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد ، فخطبها منه عمه أبوطالب ، وقد خطب عمه أبوطالب فى هذا اليوم فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وأصل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتا محجوجا ،

وحرما آمنا ، ثم إن ابنى هذا محمد بن عبد الله لا يوازن به رجل شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال مقلا فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأعظيم وخطر جليل ، وقد خطب اليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق كذا وكذا». وعلى هذا تم العقد ، وصارت خديجة أرملة أبى هالة زوجا لمحمد بن عبد الله .

معيشته قبل البعثة :

لم يرث محمد صلى الله عليه وسلم من والده شيئا مذكورا ، فقد ولد يتيما وعاش عائلا . ولما بلغ مبلغا يمكنه من أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى بادية بنى سعد ، ولما رجع الى مكة كان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأ كل منها ، وهذا حال معظم الأنبياء من قبل : لا يمدون أعينهم الى ما متع الله به أهل الدنيا ، حتى لا يشغلون بها عن العدة الأبدية ، فهذا ابراهيم وعيسى عليهما السلام وزهدهما فى الدنيا معروف مشهور ؛ وهذا موسى قد قضى شطرا من حياته يرعى الغنم فى مدين بأجر معلوم . تلك حكمة الله فى أنبيائه لتكون حياتهم مثلا صالحا لأتباعهم ، فيعينون الضعيف ، ويشفقون على المريض ، ولا يتكالبون على الدنيا ، ولا يتناحرون على متاعها ، فتغرقهم فى بحار مصائبها ومحنها وبلاياها .

ولما شب وبلغ مبلغ الرجال كان يتجر ، وكان ممن شاركه فى التجارة « السائب بن أبى السائب » ، ولما تزوج خديجة كان يتجر فى مالها ، ويأ كل من نتيجة عمله ، جمع كل ذلك الكتاب العزيز فى قوله : « ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » .

سيرته فى قومه قبل البعثة :

كان أحسن قومه خلقا ، وأصدقهم حديثا ، وأوفرهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش ، وأفضلهم مروءة . شهد له بذلك ألد أعدائه بعد البعثة ، عندما اجتمع زعماء قريش ليتفقوا على تهمة يرمونه بها ، ليصرفوا الناس عنه ، فقال أحدهم : نقول عليه ساحر ، فقال النضر بن الحارث من بنى عبد الدار : « قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر» !

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله عليه السلام قائلا : «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال » أجاب أبو سفيان «لا » فقال هرقل : « ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله » .

قد حفظه الله فى شبابه من كل أعمال الجاهلية المشينة ، وبغضت اليه الأوثان بغضا شديدا حتى كان لا يحضر لها عيدا .

وقد حدثنا عليه السلام عن نفسه فقال : « لما نشأت بغضت الى الأوثان ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله » .

من كل هذا يتجلى لنا صورة واضحة عن حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسط هؤلاء القوم ، وهو فقير يتيم يقضى جل وقته فى بطون الصحارى ورءوس الجبال وراء غنم يرعاها لأصحابها على أجر يأكل منه ، زاهد فى مجالس القوم ، بعيد عن لهوهم ، نافر من معبوداتهم ، منصرف بكليته الى ما يعنيه ، راغب عما لا يعنيه .

فلم يعرف عنه قبل الأربعين من عمره أنه خاض فى نقاش علمى ، ولا عنى بجدل دينى ، ولا فاخر بشعر ولا نثر .

أعده مولاه لتحمل رسالته ، فنشأه بمكة الخالصة للعرب وحدهم بعيدا عن يثرب التى يبعث فيها الجدل الدينى احتكاك المشركين بمن حولهم من اليهود ، فكانت حياته هادئة وادعة بعيدة عن عوامل التنافر والتباغض .

ولم يعهد فى تاريخ البشر قديمه وحديثه أن شخصا ينسلخ من عمره طليعته العامرة بالنشاط ، الحافزة الى التوثب وهو هادئ ساكن ، فاذا ما دخل فى دور تفتر فيه القوى وتذبل فيه القرائح ينقلب فتى الفكر صائل العزيمة ، تنفجر منه ملكات جديدة فى علوم شتى ومعارف عميقة الغور عويصة المباحث .

ولوضوح هذه الحجة فى الدلالة على أن رسول الله لا بطل عبقرى فحسب ، عير الله المشركين بالغفلة عنها حيث أمره أن يجيبهم على قولهم «ائت بقرآن غير هذا أو بدله» بقوله « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى الى » الى أن قال « فلقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » .

وفطن لذلك البوصيرى فقال :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

نعم عند ما استوى على رأس الاربعين عاما من عمره فجأ العالم بما غير مجرى التاريخ وقلب نظام الكون .

فجأ قومه بما يغاير ما هم عليه ، ويخالف ما ألفوه ، فقابلوه بأشد ما عرف من أنواع الايذاء ، وقاوموه بكل ما يملكون من حول وطول ، وألبوا عليه حاضرهم وباديهم ، فكان صبورا قوى الصبر ، مؤمنا صادق الايمان . وستحدثك بعض مواقفه بما يجلى لك أن هذا موقف رجل موقن فى دخيلة نفسه بما يقول ويفعل، يستمد وحى ضميره من السماء ، لا موقف رجل مغامر يختلس النصر اختلاسا .

أنبأتنا الأخبار الصحيحة أن المشركين لما فتكوا بالمسلمين يوم حنين ، وذعر المسلمون

وفروا ، بقي هو وحده على بغلته يقودها أبوسفيان وهو يركضها نحو العدو ويقول : «أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب »

يجهر بذلك حتى سمعه المسلمون ، فرجعوا اليه وكانوا قد ظنوا أنه قتل .

فهل هذا موقف رجل كسائر الرجال ، أو بطل كبقية الأبطال ، أم موقف رجل لا يعرف غير إله السماء ، ولا يرهب غير رب العالمين ؟ جمع أعداؤه عليه جموعهم ، وصبوا عليه كل ما يستطيعون من إيذائهم ، فكان يقابل أذاهم بالصبر ، ويصفح عنهم ، ويستغفر لهم ، ويعتذر عنهم ، فقد أخبرتنا الاحاديث الصحيحة : أن عمر بن الخطاب قال : «لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال : «رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » ، ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا عن آخرنا ، فلقد وطئ ظهرك ، وأدمي وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيرا ، فقلت : اللهم اغفر لقومي فأنهم لايعلمون» . وقد صحت الروايات أن غورث بن الحارث تصدى له ليفتك به وهو نائم في حر الظهيرة تحت شجرة بعيد عن أصحابه ، وهم جميعا نائمون ، فحس عليه السلام بحركة فانتبه فاذا برجل قائم على رأسه ، والسيف مصلت في يده ، قائلا : مايمنعك مني يا محمد؟ فقال : الله ! فسقط السيف من يد الرجل، فتناوله عليه السلام وقال للرجل: ما يمنعك مني؟ فقال :كن خير آخذ ،فتركه وعفا عنه ، فرجع الرجل الى قومه يقول : جئتكم من عند خير الناس .

وحدثنا أنس بن مالك قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال : يامحمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فانك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت عليه السلام ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ويقاد منك ياأعرابي ما فعلت بي ؟ قال : لا ، قال : لم ؟ قال: لأنك لا تكافيء بالسيئة السيئة ، فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

هذا الحلم والثبات والثقة بالنفس والدقة في الحكم دليل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس من عند نفسه ولا يد له فيه .

ولا فأي عقل في أي رأس يستطيع أن يتصور رجلا يأتي في مدى ثلاثة وعشرين عاما كلها حروب وأسفار ، وتعب وآلام وأهوال ،لا يؤوب من سفر حتى يستلمه سفر ، لايكاد يرى النوم الهادىء ، ولا العيش الناعم ، ومع ذلك فهو رجل أمي من أمة أمية ، فقيرة مشتتة جاهلة متوغلة في الجهالة ، رجل هذا حاله يأتي بما حير العقول ، وأعجز الفحول ، من يوم أن جاء الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ كل يوم تجتمع مجالس نيابية وتصدر تشريعات ، بعد تمحيص

وتدقيق من كبار المشرعين ، ورجال القوانين ، ثم لا تلبث عشية أو ضحاها حتى يعتريها الخلل ، ويعتورها الفساد ، ويظهر فيها من العيوب ما يوجب محوها ، وإبدالها بغيرها ، وهكذا دواليك .

قانون يبطل قانونا ، وتشريع يقوم على أنقاض تشريع ، وشرع محمد ثابت لا يتغير ، وقانونه راسخ لا يتحول ، تتكسر تحت أقدامه قوانين الانسان ، وتتحطم على صخرته تشريعات البشر ، تدور كلها حوله ثم ترجع صاغرة اليه ، وتزهو مرتفعة ثم ترتمى بين قدميه .

وهاهى تلك شريعة شامخة تقارع العقول فى أوج قوتها ، وتتحدى الأفكار فى عز نشأتها ، فى كل باب من أبواب الحياة ، وفى كل لون من ألوان الأخلاق والعادات ، وفى كل ناحية من نواحى الاجتماع .

فبينما تراها تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق ، فاذا بها تشرح واجب المرء نحو نفسه ، ونحو أهله ، ونحو زوجه وولده ، ثم نحو المجتمع كله ، لم تترك فضيلة إلا طلبتها ، ولا رذيلة إلا حظرتها .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، صاحب هذه الرسالة ، التى لم تقتصر على طائفة دون طائفة ، ولا على المسلمين دون غيرهم ، بل تناولت روابط المسلمين بغيرهم من جميع الملل والنحل ، مما يجعل هذا النبى الكريم مبعوث الانسانية ، ورحمة العالمين ، ويتيح لكل فرد من بنى الانسان أن يقرأ فى صحيفة هذا النبى الكريم أسمى المبادئ ، وأنبل المقاصد ، وأشرف الغايات .

جاء خاتم النبيين ، وأرسل للناس كافة ، فدعا الى الاخاء والسلام ، وحبب الى النفس المودة والوئام ، فكان مع خصومه مثلا أعلى للانسان الكامل .

فيأيها الناس ، اذكروا هذا النبى الكريم ، واستعرضوا حياته وسيرته ، استخرجوا منها بما ينفعكم ، فكلها دروس وعظات ، ويأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

عبد الجليل عيسى أبو النصر
شيخ معهد دسوق

محمد صلى الله عليه وسلم

وهل تنسى عظمته ؟

فى شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ لميلاد المسيح عليه السلام ، وفى مكة من قرى بلاد العرب ، ولد « محمد » من أبوين كريمين ، يتصل نسبهما بنبى الله اسماعيل ، وقد مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب وهو فى بطن أمه آمنة بنت وهب ، لم تنفخ فيه روح الحياة ، ومكث بعد ولادته الى السنة الخامسة من عمره فى بنى سعد حيث كانت ترضعه حليمة السعدية ، وبعد أن عاد من الصحراء ارتحلت به أمه الى المدينة ، ومكثت به شهرا فى ضيافة بنى النجار أخوال أبيه عبد الله ، وقد أراد الله ألا يطول أمد اتصاله بأمه كى لا يشتغل قلبه بالأمومة ، كما لم يشتغل قلبه بالأبوة ، فانتزعها منه أثناء أوبتهم الى مكة ، وهكذا نشأه ربه معتمدا على نفسه ، خالى القلب من شواغل الأبوة والأمومة ، متفرغا لما يفاض عليه من حب مولاه .

تولاه الله برعايته ، وصنعه بيده ، آواه من يتم ، وأغناه من عيلة ، وهداه من ضلال وحيرة ، ومازال يغمره بالفضل والاحسان ، حتى بلغ أشده واستوى فى أفق الانسانية الأعلى ، وتهيأت نفسه البشرية لتلقى الرسالة العامة التى ختمت بها رسالات الحق الى الخلق ، فأرسله الله رحمة للعالمين ، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، أرسله بدين أساسه الايمان بالله واليوم الآخر ، وقوامه مكارم الأخلاق وصالح العمل « يأيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر »

ظل بعد ذلك بمكة يدعو الى التوحيد ، وعقيدة البعث والجزاء ، ونبذ ما كان عليه الآباء : من الشرك والوثنية ، وسوء الخلق ، وقبيح العادات ، وما كان له من سلاح فى تلك الدعوة إلا سلاح الحكمة يغزو بها القلوب ، والموعظة الحسنة يهذب بها النفوس ، ويلطف الطباع .

ولما رأى أن الدعوة لا تتغلغل فى النفوس كما يحب ويريد ، وأن موقف المكيين منه وتعصبهم لموروثاتهم ، قد يكون له من النتائج الخطيرة مالا يتفق ونجاح دعوته ، هاجر هو وصحبه الى المدينة ، وقد سبقهم اليها أريج الدعوة ، وتخللت هناك قلوبا عاهدته على أن يمنعوه مما يمنعون منه الأنفس والأبناء والأعزاء . هاجروا اليهم ضما للصفوف ، وتوحيداً للكلمة ، وجمعا للقوى المتحابة فى الله . هاجروا اليهم التماسا لوسائل العزة والنصر ، ونزوعا عن مواطن القهر والاذلال :

وفى الارض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول

وهناك ابتدأت لدعوته حياة جديدة ، أخذت تغزو الناس فى عقر دارهم ، وتتابع الوحى

من السماء بالقانون الذى ينظم تلك الحياة ؛ التى سلخ فى بنائها وتنظيم تشريعها مدة حياته فى المدينة ؛ وقد أقر الله عينه بثمرة جهاده ، ورأى كلمة التوحيد تعمل عملها فى عناصر الشرك ، وتعفى على مظاهر الضلال والبهتان ، وأنزل عليه فى محكم الكتاب : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ؛ ورضيت لكم الاسلام دينا » .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى أن يحتفلوا بميلاده فى هذا الشهر من كل عام ، يذكرون الناس بشمائله التى فطر عليها ؛ وعرف بها فى أهله وقومه ، يوم أن كان غلاما حدثا يرعى الغنم ؛ ويوم أن كان شابا جلدا يحضر مع أعمامه حرب الفجار ، وحلف الفضول ؛ ويوم أن كان رجلا مكتملا وافر العقل ، يرتحل فى تجارة خديجة بنت خويلد ، ويرضاه القوم حكمًا فى النزاع الذى شجر بينهم فيمن يضع الحجر الأسود فى موضعه من البيت ؛ ويوم أن كان ناسكا متحنثا يفر من ظلمات الدنيا ، ويلتمس الأنس بربه ؛ ويوم أن كان داعيا الى الله مبشرا من أجاب ، ومنذرا من أبى ؛ ويوم أن كان قائدا يتقدم الصفوف ، ويتقى به أصحابه ، ويتلقى النبال والقذائف ، ويوم أن كان حاكما لا يعرف الجور ولا المحاباة ؛ ويوم أن كان هاديا مرشدا يتعهد الناس بالحكمة والموعظة .

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر لا يفكرون فى إقامة حفل خاص يذكرون فيه الناس بشمائل رسولهم ، ولانجهات عظمته التى تجلت فى هذه الأطوار كلها ، ذلك لأن عظمته لم تكن عندهم فى مكان هذه العظمة التى تألفها الأمم فى نوابغها وأفذاذها ، ويخشون عليها الموت أو التلاشى فى صحف الأيام الماضية ، وإنما هى عظمة قارة فى نفوسهم ، منقوشة فى قلوبهم ، لها من الآثار ما أدهش العالم فى حياته ، وما بقى بعد مماته يتغلغل فى العالم ، ويسرى فى أرجائه وأعماقه ، حتى أرغم الخصوم فى العهدين على الاعتراف بها والاغتراف من سلسبيلها ، عظمة لم يقتصر أثرها على جانب من جوانب الحياة مهما عظمت ،ومهما تنوعت ، بل لم يقتصر على حدود هذه الحياة ، بل مد سلطانه إلى الحياة الآخرة ، وكشف للناس عن حجب غيبها ، وصور لهم ما سيجدون فيها من نعيم أوشقاء .

ليست عظمته صلى الله عليه وسلم من عظمة الملوك الجبارين ، الذين يستعذبون أنين الانسانية واستعباد الخلق وإذلالهم، فلقد خرج ذات يوم على أصحابه يتوكأ على عصاه ؛ فقاموا له إجلالا واحتراما ، فقال لهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضها بعضا .

ودخل عليه رجل ، فأصابته رعدة من هيبته ، فقال له : هون عليك ، فانى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد .

وليست من عظمة القواد الطاغين الذين يفسدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ، ولايرون السعادة إلا فى الفتك بالضعفاء ، والتخريب والتدمير ، وترويع الآمنين ، فلقد دخل مكة

وبيده جميع أسباب النصر والقوة، ولم ينس ما أصابه فيها ثلاثة عشر عاما من كيد وتنكيل، فلم يحضره شيء من صلف الفاتحين، أوجبروت المنتصرين، ولم تعرف ثورة انتقام الموتور، وقد أيد بالقوة من كل جانب، سبيلا الى قلبه الذى امتلأ رحمة وعطفاً، وشفقة وكرما، يدخل مكة فاتحا وأعلام النصر تخفق فوق رأسه، مطأطئا حتى تكاد تمس رأسه قادمة الرحل، ثم يجلس بعد أن يؤمن الناس، ويجلس حوله صناديد قريش، وهم الذين آذوه وأخرجوه من داره بغير حق إلا أن دعاهم الى توحيد خالقهم، وإعلان إنسانيتهم، يجلسون بعيون شاخصة، وقلوب واجفة، ينتظرون ما هو فاعل بهم، وأى عذاب يصب فوق رءوسهم، ويعرف ذلك فى وجوههم، ويقرؤه واضحا فى جباههم، ويسمع خفقات قلوبهم، واصطكاك مفاصلهم، فيهدئ روعهم، ويقول لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ فيقولون بلهجة من يستدر العطف والرحمة: أخ كريم، وابن أخ كريم، فيقول لهم تلك الكلمة الخالدة: اذهبوا فأنتم الطلقاء! تلك هى العظمة التى تنطفئ ببردها وسلامها عظمة نيران المدافع، وتذوب أمامها قوة العسف والطغيان.

وليست من عظمة الأغنياء الموسرين الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق، ويمنعون حق السائل والمحروم، ثم هم يسخرون عباد الله فى شهواتهم وأهوائهم بشيء من حطام الدنيا الزائل، فقد كان عليه الصلاة والسلام زاهداً فى الدنيا، قلا فى المال، ومع ذلك كان أجود من الريح المرسلة. جاءه رجل من جفاة الأعراب، ومعه بعيران، فلما دنا منه جذبه بردائه جذبة شديدة أثرت بها حاشية البرد فى صفحة عنقه، ثم قال له: يا محمد، احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك، فانك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك! أتعلم ماذا كان موقف الرسول من هذا الأعرابى الذى جاء يلتمس منه الاحسان؟ قال له صلى الله عليه وسلم:- نعم يا أعرابى، المال مال الله، وأنا عبده، سنعطيك ما طلبت، ويقاد منك ما فعلت، فقال الأعرابى: لا، فقال النبى: ولم؟ قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، ولكن تكافئ السيئة بالحسنة، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وأمر أن يحمل له على أحد بعيريه شعير، وعلى الآخر تمر، فساقهما الأعرابى، وانصرف شاكراً لله، ولرسول الله، وهكذا كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن، فاذا الذى بينك وبينه عداوة، كأنه ولى حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم».

إن العظمة التى تعرفها الأمم لأفذاذها، وتقيم لها الذكريات، لا تعدو فى غالب أمرها أن تكون من هذا الجبروت الغاشم الذى يتخذ من أرض الشعوب الهادئة وديانا يملؤها بدماء البشرية البريئة، ومن أجسامهم أشلاء تتراكم بها طبقات الأرض ظلما وعدوانا!

وإذا قدر لأمة أن يكون لبعض أبنائها حظ من العظمة الحقة النافعة، فهذا الحظ لا يتجاوز

جانبا من جوانب هذه الحياة ، ومع ذلك لا يلبث أن يزول ، أو يغشيه حظ آخر من نوعه ، أو من نوع سواه هو أشد اتصالا أو ملاءمة لحياة الأمة المتطورة .

أما عظمة محمد ، فهي عظمة رحمة وعطف ، عظمة هداية وإرشاد ، عظمة تثقيف وتهذيب ، عظمة إصلاح وتعمير ، عظمة سلم وأمان ، عظمة تهيئ للحياة الفاضلة عناصرها ، وتعبد لها سبلها .

لا أريد أن أحدثك عن عظمته الخلقية التي نشأ فيها ، وشب عليها ، واعترف بها من لا يؤمن به ، فقد تحدث عنها كثير ، وإني أخشى إذا تحدثت بشيء منها أن يقول من ينكر فضل الله ، ويلحد في آياته البينات : عظمة طواها الدهر ، وماتت بموت صاحبها . وإنما أريد أن أتحدث عن تلك العظمة الأخرى التي سايرت آثارها الدهر ، واستقرت في صفحة الخلود ، وأخذ العالم يستمد منها غذاء حياته الروحية والاجتماعية ، هذه العظمة التي تتمثل آثارها في تلك التعاليم التي وحدت بين قلوب متنافرة ، وربطت بين قبائل مبعثرة ، فهذبت من خشونتها وخففت من غلوائها ، وكونت منها أمة مهيبة الجانب ، عزيزة المنال ، عظيمة الأثر ، ذات شخصية ثابتة ، ونظام محكم متين ، استطاعت أن تسوس به شعوب الأرض على دعائم قوية من الحكمة والعدل .

هذه التعاليم التي فوجىء بها قوم تمكنت فيهم عوامل الفساد في الأرض ، وحرفوا الشرائع وعبدوا غير الله ، ونسوا يوم البعث والجزاء ، وتحكم قويهم في ضعيفهم ، وانحلت أخلاقهم ، واستباحوا الدماء والأعراض والأموال ، حتى ماد العالم ، واضطربت أركانه ، وتزعزعت عناصر الحياة فيه ، وما هي إلا صرخة الحق عن طريق محمد حتى ملأ الإيمان قلوبهم ، وتبادلوا العطف والمحبة ، وسادت الرحمة فيما بينهم ، وتبدل شرهم خيرا ، وفسادهم صلاحا ، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

هذه التعاليم التي أطلقت للعقل البشري حريته ، وفكته من السلاسل والأغلال ، وأهابت به أن يتقلب في بديع الكون ، وظواهر الطبيعة ، وينتفع بما أودع فيها من أسرار وسنن ، وأنحت باللائمة الشديدة على التقليد ، وعابت الجمود والتعصب للوراثة « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

هذه التعاليم التي سوت بين الذكر والانثى ، والحاكم والمحكوم ، وقررت أن الناس سواسية ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، ونظرت الى الشعوب والقبائل نظرة واحدة ، وجميعهم في ثوب واحد ، لا تفاضل فيه ولا تفاوت ، وهو ثوب الانسانية الشامل .

هذه التعاليم التي قررت مبدأ حرية العقيدة ، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق ، وقالت : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » .

هذه التعاليم التى قررت حق التشريع وتولية الحاكم وعزله للامة صاحبة الشان يتولاه أهل الحل والعقد من أبنائها « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » . « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

هذه التعاليم التى ما تركت فضيلة إلا حثت عليها ، ولا رذيلة إلا حذرت منها ، ولا أصلا من أصول التشريع الحى الناهض إلا قررته ، وطلبته من الناس شرعا يسعدون به فى الدنيا ، ودينا ينعمون به فى الآخرة .

هذه التعاليم التى كانت شفاء ورحمة للعالم ، وغرست بذور الخير فى نواحيه ، وانتشلت الانسانية من كبوتها ، وسمت بها الى المكانة اللائقة بها هى آثار العظمة المحمدية ، وهى كما ترى آثار عامة النفع ، خالدة الشأن . وإن عظمة هذه نتيجتها لا يليق بجلالها ، ومكانة التدين بها أن تنسى من القلوب ، وأن تذهب من النفوس روعتها ، حتى تحتاج فى إحيائها وتجديد ذكراها الى محافل تقام ، وخطب تلقى ، وفصول تكتب !

بهذا آمن الأوائل من المسلمين يوم أن كان الايمان قويا ، والشعور بخلود تلك العظمة حادا ، فبذلوا نفوسهم فى ترسم خطاها ، والجد فى نشرها ، والعمل على انتفاع الانسانية بها . فكانت جميع أيامهم ذكرى لتلك العظمة ، وكانت حركاتهم وسكناتهم ألسنة من نور ، ترسم فى صفحة الوجود العام .

هذه عظمة محمد بن عبد الله ، ولكن لما ضعفت النفوس ، ونأت القلوب بحمل الأمانة ، هان تقدير تلك العظمة ، ووضعوها فى مستوى تلك العظمات الأخرى التى حدثناك عنها ، وظنوا أنها من نوعها ، فكرموها بصور وأساليب ابتدعوها ، وأطلقوا عليها اسم « الاحتفال بالمولد النبوى » ، واتخذوه عيدا من أعيادهم يجتمعون له ، ويتذاكرون فيه سيرة النبى العظيم ، ولم يمنعهم حياء من أن ينعتوا ذلك بأنه قصة « المولد الشريف ! » وما كان لعظمة محمد أن تكون قصة ، وما كان لسيرته أن تنسى ، وما كان لآثارها أن تغفل عنها القلوب وهى تؤمن بالله واليوم الآخر .

إن التكريم الحق ، والذكرى الصحيحة لهذه العظمة ، إنما يكون ببث حكمه وآدابه ، ونشر تعاليمه وأحكامه ، والتشمير عن ساعد الجد فى إقامة حدوده وشرعه ، حتى يضمحل الشر ، ويعظم الخير ، وتتحقق إرادة الله فى العالم « ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا » !

محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

محمد خاتم النبيين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » رواه البخارى .

حقا لقد كان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه اللبنة الأخيرة من البيت الذى بنى بوساطة الأنبياء السابقين ، وكان من أجل ذلك خاتم النبيين . وما دام محمد هو اللبنة الأخيرة من ذلك البيت ، وما دام خاتم النبيين ، فليكن ما أتى به من إصلاح ، وما نزل عليه من تشريع هو الاصلاح الذى لا ينتظر أن يعقب باصلاح ، وهو التشريع الذى يصلح مرجعا للأجيال المقبلة ، والأزمان المتعاقبة .

لذلك لم يدع طائفة من طوائف الأمة إلا أصلحها ، ولا جماعة إلا رسم لها طريق سعادتها . أصلح الحاكم والمحكوم ، أصلح التاجر والصانع ، أصلح جماعة الأغنياء والفقراء ، صلح الأسر التى تتكون منها البيوت ، وفيها الرجل والمرأة ، والأولاد والخدم .

فتراه يرغب ولاة الأمور فى العدل ، وينهاهم عن الظلم : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا » يطلب الى الحكام أن يسووا بين الأفراد والجماعات فى تطبيق القوانين ، وأن لا يفرقوا بينهم فى الحقوق التى يجب أن يتمتع بها الناس على السواء . حتى لا يحملك بغض رجل من الناس ، أو هيئة من الهيئات ، على أن تحول بينهم وبين حقهم الطبعى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »

ولو أن الناس انتفعوا بذلك الاصلاح المحمدى ، الذى يضبط النفوس ، ويحول بينها وبين الشهوة ، فأنصفوا خصومهم كما ينصفون أنصارهم ، لكان حالهم أحسن من ذلك الحال الذى تراه . وهل هناك تشريع أعدل من تشريع يوجب عليك أن تدع الخصومة الشخصية جانبا ، وتعطى خصمك من الحق ما هو أهل له ؟ هل هناك تشريع أحكم من تشريع يحرم عليك أن تساير العاطفة ، حتى لا تتغلب على العقل والمصلحة ، وبذلك تكون قواما بالقسط ، شاهدا بالحق وللحق ، وإن كان موقفك هذا فى غير مصلحة آبائك وذويك ؟ « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »

إن تشريعا هذا حاله ، يقدس الحق ولو لم يكن فى مصلحة النفس أو الآباء والأقارب ،

ويمتهن الباطل ، هو تشريع يجب أن يبقى ويدوم ، وهو التشريع الذى سعد به المسلمون زمنا طويلا ، وشهد لهم من أجله خصومهم أيام فتحهم ، حتى قال قائلهم : « لم تر الأرض فاتحا أعدل من الاسلام » . ولعلهم عائدون إليه بعد أن قتلتهم الشهوات ، وفرقتهم الأهواء والاحن ، وذاق بعضهم بأس بعض .

وكما أوجب الله على الحاكم أن يعدل بين رعيته ، أوجب على الأمة أن تكون عونا للحاكم على إقامة صرح العدل ، وحرم عليها أن تمهد له سبيل الظلم ، وتعينه على الباطل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . وروى أبو داود والترمذى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : « يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

وحسبك فى التنفير من التعاون مع الظالم قول الله تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

أما إصلاحه لجماعة التجار فتراه فى أكثر من موطن من القرءان الكريم : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا » . فترى القرءان الكريم يتوعد آكلى أموال الناس بغير حق نارا ، ويبيح لهم أن يتجروا بالمال تجارة أساسها الرضا والصدق ، ثم تراه يرينا الحكمة من ذلك النهى ، إذ يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم » لأن أكل أموال الناس بالباطل ، وتخريب بيوتهم قتل لأرباب الأموال ، وإذا لم يكن قتلا فهو طريقه الموصل إليه . ولأجل أن يريك أن الأمة متكافلة فى الخير والشر ، وأن العدوان على بعضها عدوان على الجميع ، حتى إن القاتل لأخيه كالقاتل لنفسه ، وهو أسلوب من أساليب تبشيع الجرائم ، لأجل ذلك يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » . وأى تشريع أرحم من تشريع يباعد بينها وبين ذلك الشر على النحو الذى ترى ؟

أما إصلاحه للصانع فحثه على الصدق ، وترغيبه فى الأمانة . وفى الحديث « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » رواه مسلم .

أما جماعة الأغنياء والفقراء فقد تعجب كيف وضع الدين لها الدواء ، ونصح لها بطريق تضمن لها السعادة ، لأن الفتنة بالمال عظيمة ، فصاحب المال من شأنه أن يطغى ، وصاحب المال من شانه أن يترفع به عن الفقراء والمعدمين ، وقد يغريه غناه أن يصرفه فى محاربة ربه

وخالقه ، وصاحب الفضل الأول عليه ، ومن أجل ذلك كان المال فتنة وابتلاء ، وكان محكا للنفوس يعرف به طيبها من خبيثها « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » .

ولا تقل الفتنة بالفقر عن الفتنة بالغنى ، فكثيرا ما تصل بصاحبها الى السخط ، وتوقعه فى الهلكة ، فلا يرضى قسمة ربه ، ولا نظام مولاه ، وقد يحرمه الصبر والرضا فتزل قدمه ، وينهار إيمانه . فالمال فتنة وابتلاء للحاصلين عليه ، وهو كذلك فتنة للفاقدين له « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

جاء خاتم النبيين والابنة الأخيرة من البيت النبوى ، فنصح الى جماعة الأغنياء أن يبذلوا شيئاً من المال هو الزكاة ، ليطهر بذلك البذل نفوسهم ، ويعودهم على السخاء ، فان النفوس إذا ألفت الشح هلكت ، فأضاعت المصالح ، وعطلت المرافق ، فكان من رحمة الله بالغنى أن يصبح رجلا صالحا للحياة ، إذا دعى الى بذل ماله فى سبيل الخير أجاب ، وإذا اشتبك مع بعض قراباته فى تركة خلفها له أبوه خضع لقسمة الله فى المواريث ، وتعفف عن الدنايا التى يرتكبها بعض الناس لحرمان أخته من ميراث أبيه .

لم تقف آثار الزكاة عند ذلك الحد من تطهير نفوس أصحابها من الشح ، بل هى الى ذلك تستل من نفوس الفقراء والمعوزين حنقهم على أرباب الأموال ، وحسدهم للأغنياء ، فيصبح الغنى محبوبا للفقير ، والفقير خادما للغنى ، يحرس ماله لأن له نصيبا فيه .

وإن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية الممقوتة ما لا يقف عند حد ، لأنهم لم يرضوا بالاشتراكية المعقولة التى شرعها الله بالزكاة ، فكان عاقبة أمرهم أن سلط الله عليهم من يقض مضاجعهم ، ويزعجهم فى حياتهم ؛ وتطرف بعض الشعوب فاستولى على رءوس الأموال ، وأخذ يحارب الاستئثار بالثروة ، ويجعلها حقا شائعا للناس ، ونسى أن ذلك من شأنه أن يميت الروح المعنوى فى العامل ، ويقضى على غريزة تنازع البقاء ، والتنافس فى الحياة .

وقد فطنوا لشرور ذلك العمل ، فأخذوا ينظمونه ليصلوا الى ما يزعمون من سعادة ، وهيهات هيهات لما يؤملون ! فان السعادة فيما شرعه له الله ، وفى أن تبقى لكل عامل نتيجة عمله ، وفى أن تصير الحياة ومرافقها حقاً شائعاً يتنافس فيه الناس بمقدار ما تهيئوا له من أسباب ووسائل « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

فأنت ترى كيف تناول ذلك الاصلاح المحمدى جماعة الأغنياء والفقراء ، أما الأغنياء فاصلاحهم بالبذل ، وتطهير نفوسهم بالعطاء ، وحفظ أموالهم بالسخاء .

وأما الفقراء فاصلاحهم بحفظ حياتهم ، والحيلولة بينهم وبين إراقة ماء وجوههم .

وهناك إصلاح آخر لجماعة الفقراء ، هو تعهدهم بالترضية ، وترويض نفوسهم على القناعة ، وعدتهم بان الصابر له من الجزاء عند الله ما هو أهل له ، وإن حرم لذائذ هذه الحياة فلن يحرم لذائذ الدار الآخرة .

ولولا ذلك الاصلاح الروحى وأثره فى نفوس الفقراء والمعوزين لانقلبت هذه الحياة جحيما على الكثير من الناس ، وشقيت بها المجموعة الانسانية الى حد كبير . فمن فضل الله على البشر إيمانهم بذلك الوعد الالهى ، وثقتهم بذلك النعيم الدائم ، وأملهم فى الآخرة وما أعده الله لمن لم تهيىء له ظروفه فى هذه الحياة أن ينعم بما نعم به غيره . من فضل الله تعالى ذلك الاصلاح المحمدى الذى صلح به الغنى كما أصلح به الفقير .

أما إصلاحه للأسرة فحسبك أن الله تعالى يقول فى شأن كل من الزوجين : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » فيرينا أن للرجل من الحقوق على زوجه مثل ما للمرأة على زوجها من الحق فى حدود المعروف عند الناس فى معاملاتهم ومعاشراتهم ، والدرجة التى للرجال هى درجة الرياسة المفسرة بقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

فلم يدع الحياة الزوجية بدون رئيس يرجع إليه عند الخلاف ، واختار الله الرجل لرياسة البيت لأنه أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن أجل ذلك كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والانفاق عليها .

وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته — قال : وحسبت أن قد قال : والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

ولو أن الناس عملوا بهذه النصائح ، وقام كل بما أوجبه الله عليه من زوج وزوجة وولد وخادم ، لصلحت البيوت ، وبصلاحها تصلح الأمة ، ولكنهم لم يقدروا ذلك الاصلاح قدره .

وفقنا الله لما يحبه ويرضاه !

محمد أحمد العدوى

من نفحات النبوة

فى صحيح البخارى من حديث هرقل : « وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سقفا على نصارى الشأم يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك ! قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب الى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا اليه ، فحدثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب ، فقال : هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر » .

ملك العرب قد ظهر ، فلا قيصرية الروم فى عظمتها وسلطانها ، ولا كسروية الفرس فى أبهتها وجبروتها ، تسوق لها العناية الالهية هذا الملك ! بل تسوقه للعرب ، تلك الأمة المنزوية فى زاوية من الدنيا بعد أن طالت عليها الأحقاب فأنستها تاريخها ، وبدلتها به حياة من الفوضى الاجتماعية والاضطراب ، فنسيها الزمن وأهمل وجودها من ذكرياته ، فلا يعرف عنها جيرانها أخص عاداتها ، وأعرف مميزاتها ، كأن لم تكن على صفحة الوجود . يقول هرقل لأصحاب دولته : فمن يختتن من أهل هذا العصر ؟ فيقولون له : ليس يختتن إلا اليهود ! فأين أمة العرب ؟ هم لا يعرفونها ، أو هم لا يأبهون لها ، لأن الحديث حديث ملك يرث دولة القياصرة ، وملك الأكاسرة ، وأين يقع العرب من ذلك ؟

ظهر ملك العرب ! فأين جحافله ؟ وأين عدده وعديده ؟ وأين أسلحته وأساطيله ؟ وأين أريكته وعرشه ؟ وأين ملوكه وسواسه ؟ وأين صولته وعظمته ؟ لا شىء ، إنما هى الصحراء القاحلة الجرداء ينتثر فيها جماعات من الناس انتثار حبات الجزع انفرط عقدها ، والملك إنما يقوم على قواعد من القوى المتماسكة للجماعة المنظمة ، والمال المتراكم فى الخزائن ، والجيوش الجرارة ، والعلم والمعرفة يشيعان فى طوائف الأمة ليرفعاها من حضيض الجهالة الى مستوى الرقى الفكرى ونظام السياسة ، وأنى للعرب شىء من ذلك ؟

ظهر ملك العرب ! فليتجه الفلك فى دورته اتجاها جديدا ، وليقف التاريخ ليملى على الحياة درسا جديدا فى نظام الجماعات وتاسيس الملك ، وليطو تلك الصفحات البالية التى سئمت الحياة أحاديثها عن ملك القهر والجبروت ، ودول الملوك والعبيد ، والسيد والمسود ، والذل

والاستعباد ، والظلم والاستبداد ، وليبدأ فى صفحات الخلود ، وأحاديث المثل الأعلى ، وليتحدث عن ملك الرحمة والعدل ، الناس فيه سواسية كأسنان المشط إنما يتفاضلون بعمل الخير والبر والتقوى ، فقد تجاوزت الانسانية سن الطفولة ، وبلغت أشدها ، واستوت أفكارها ، واكتملت عقولها ، واستعدت استعدادا جامعا لتلقى كلمة السماء لتعيش بها على الأرض عيشة الملائكة فى أثواب البشر ، حتى يكون كل فرد منها فى حقيقته إنسانا بروح ملك .

ظهر ملك العرب ! وكأنما جعل الله هـذه الأمة الفطرية فى حياتها عنوانا على الانسانية فى مرحلة كمالها ، فاختيرت لتكون أفقا لشمس النبوة الخاتمة إيذانا بكمال فطرتها ، وكأنما كانت عزلتها عن العالم فى جزيرتها إبقاء على إنسانيتها أن يقتلها الترف والاستعباد ، وهما أدوأ الأدواء ، وأفتك الأمراض الاجتماعية بالامم ، إنما مثلها مثل الخامة من الذهب الابريز فى باطن الأرض ، فما هو إلا أن تتناوله أيدى الصاغة المهرة لتفتنه بالصهر حتى تزول عنه أدران منبته وأوضار بيئته ، فيخلص جوهره وتصفو طبيعته .

ظهر ملك العـرب ! وطلع نجم النبوة الخاتمة : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمـة ونجعلهم الوارثين . ونمـكن لهم فى الأرض » لتبطل مقاييس الناس فى الماضى ، وتوضع لهم مقاييس جديدة ترجح بها كفة العقل الانسانى ، ويقوم على أساسها ملك من الحق والعدل ، والعلم والاخاء والسلام .

وى كأن الله تعالى أفرغ العرب فى هذه المرحلة من تاريخهم الجاهلى عن هذه الفلسفات الدينية ، والديانات الفلسفية ، والنظم الاجتماعية والسياسية ليبقيهم على فطرتهم خالصة من تعقيد العقائد ، والتواء التفلسف ، فلم تكن لهم مجوسية الفرس ومزدكيتهم ، ولا أقانيم الروم وتثليثهم ، ولا نظريات اليونان وفلسفتهم ، بل كانت لهم ديانات وعقائد ، وضروب من التدين تقليدية لا تقوم على شبهة من علم أو تفكير ، تلقفوها تلقفا ، أو ورثوها إرثا كما يرثون عن آبائهم المال ، وكان أكثرها انتشارا تلك الوثنية الوضيعة ، وهى أظهر العقائد بطلانا وسخفا ، فلا تحتاج فى إزالة أثرها وتحويل النفوس عنها الى دين الحق أكثر من النظر الحسى ، وتحريك العقل ، ولهذا كان القرآن الكريم فى حجاجه لهم يتهكم بهم ويزرى بعقولهم « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » . ولم يكن لهم جدل منطقى فى الدين ، ولا كانت لهم حجة يستندون عليها فى عقائدهم غير التقليد « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . وكان أكثر ما صدهم عن قبول الحق فى مبدأ أمرهم العصبية الجاهلية ، والجهل بسنن الله تعالى فى شرائعه واختيار أنبيائه ورسله : « وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » كأنهم حسبوا النبوة من جنس مراتبهم البشرية لا ينالها إلا العظماء

وأهل الثراء الواسع ، والجاه العريض ، فرد الله عليهم زعمهم بقوله عز وجهه : « أهم يقسمون رحمة ربك » وأفهمهم أن شأن النبوة والرسالة شأن إلهى لا كسب فيه للانسان ، فقال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون »

ظهر ملك العرب ! وبعث الله تعالى خاتم أنبيائه من أشرفهم بيتا ، وأطهرهم عرقا ، وأعزهم أرومة .

إذا اجتمعت يوما قريش لمعشر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فان محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها

وقد نشأ الله تعالى نبيه أكرم تنشئة ، ورباه أفضل تربية ، وأدبه أحسن تأديب ، فجنبه أمور الجاهلية كلها ، وحبب اليه الخير ، وأكرمه وعظمه وكمله فى خلقه وخلقه ، وأثنى عليه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

عرف الله تعالى قبل نبوته ببصيرته ، فعبده بالتفكر فى آياته ، والتدبر فى جلال مصنوعاته ، واعتزل قومه وهجر أعيادهم ، وتعبد لربه حتى كمل سنه أربعين سنة ، فاوحى اليه شريعة الاسلام ، والاسلام فى أصوله شريعة جميع الأنبياء والمرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

وإنما تختلف الشرائع فى الفروع والسياسات وما به إصلاح الخلق اختلافا يقوم على أساس استعداد الأمة لقبول التشريع والعمل به ، وأن يكون لذلك التشريع أثر فى إنهاضها وإصلاح حالها فى عقيدتها وأخلاقها وتفكيرها بقدر ما يوائم فطرتها وعقلها ، والشريعة المحمدية خاتمة الشرائع السماوية ، فهى جامعة لخيرى الدنيا والآخرة فى كل زمان ومكان ، ولكل جيل وقبيل ، قامت على تصحيح العقيدة بتوحيد الله تعالى توحيدا خالصا لا تشوبه شائبة إشراك : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . وسلكت لذلك طريق إيقاظ العقل وتحريره من رق التقليد ، وإرشاده الى مواطن الاستدلال بالنظر فى الكون وبدائعه ، وما فيه من آيات تنطق بجلال الله وتفرده بالخلق والتقدير :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

ولم يعتمد القرآن الحكيم على أساليب المناطقة من المتفلسفة ، بل خاطب الناس فى وضوح موجها نظرهم الى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة

فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وقامت الى جانب تصحيح العقيدة وإحسان الصلة بالله تعالى بانواع العبادات المطهرة لأدران النفوس على دعائم الأخلاق الفاضلة توثيقا لروابط المحبة بين الخلق : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . ولما نزل قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » سأل النبى صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وكان رسول الله يقول فى دعائه : اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى . وقد جعل تتميم مكارم الأخلاق أساس بعثته وقاعدة رسالته ، فقال فى حديث الموطأ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وانظر الى التعبير بقوله أتمم وما تجد فيه من اللطف الذى يشعرك بأن الاسلام لا يغمط الفطرة الانسانية حقها ، ولا ينكر عليها ما فيها من خير ، ولكن هذا الخير الفطرى لا يؤتى أكله إلا إذا خلص من طغيان الشر عليه . والذى يتأمل تاريخ الانسانية على عهد البعثة المحمدية يعلم علم اليقين أن الشر استشرى وسد منافذ الحياة ، ولم يعد للخير سبيل الى النفوس ، فجاءت البعثة المحمدية لتحيى فى الفطرة الانسانية أصول الخير وتتمم مكارم الأخلاق . قال العلامة جوستاف لوبون فى كتاب حضارة العرب : « إن التعاليم الأخلاقية التى جاء بها القرآن هى صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية الكريمة ، فقد حض على الصدقة والاحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا الى الاستمساك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهد ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذى القربى ورعى الأرامل والقيام على اليتامى . ووصى فى عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة ... تلك هى الآداب السامية التى دعا اليها القرآن ، وهى أسمى بكثير من آداب الانجيل » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى سمو الخلق وجمال الفضائل ، تقول عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا ، ألين الناس ، بساما ضحاكا » وروى أصحاب السير « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فأمر أصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال : قد علمت أنكم تكفونى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه » . ودخل عليه أعرابى فارتاع لهيبته ، فقال له : « خفض عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » . فهل تعرف الانسانية ضريبا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى كمال خلقه ؟

دع ما ادعتـه النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

قال سير وليم موير : امتاز محمد صلى الله عليه وسلم بوضوح كلامه ويسر دينه ، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب ، فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم !

ظهر ملك العرب ! ولم يكن للعرب من وسائل الملك إلا هـذا الدين القويم ، فأشربت نفوسهم تعاليمه وآدابه ، وراحوا يبثونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، جاعلين العدل مع العدو والولى شعارهم ، والرحمة مع الكافة دثارهم «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» حتى ضرب الدين بجرانه ، وقام على قواعده ملك لم تغب عنه الشمس . قال الكونت هنرى دى كاسترى : إن أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) هم الذين جمعوا بين المحاسنة فى معاملة المغلوبين والرغبة فى انتشار دينهم ، وهذه الرغبة هى التى دفعت العرب الى الفتوحات ، فنشر القرآن رايته خلف جيوشه المظفرة ، ولم يخلفوا فى طريقهم أثرا للجور .

واحر قلباه !! أين ملك العرب ؟ إنهم سلبوه ، لأنهم لم يحسنوا سياسته ، ولم يحفظوا دينهم الذى أسس لهم ذلك الملك ، فأضاعوا فيما بينهم تعاليمه وآدابه ، فلم يستمسكوا بغرزه ، ولم يعملوا بوصاياه :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

قال هرقل فى مساءلته لأبى سفيان : وسألتك بما يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين !

كذلك كان أساس الملك فى الصدق والعفاف والاخلاص لله تعالى ، والعمل الجاد فى كل ما تتطلب الحياة من شئون ، فهل يدرك المسلمون هـذه الحقيقة فيحيوا حياة الجد والعمل والخلق الطاهر حتى يعود اليهم مجد أسلافهم ؟ عندئذ يصح أن نهتف بما هتف به هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر !!

صادق ابراهيم عرجون

فى ظلال الاسلام

(١)

تفضلت مجلة الأزهر فدعتنى الى كتابة كلمة تتصل بالمولد النبوى ، فنظرت فرأيتنى أفرغت كل ماعندى من هـذه المعانى فى كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » الذى نشرته مكتبة الحلبى ، ورجعت أنظر فيما عندى من قـديم المحصول فرأيتنى كما قال الحريرى ، خالى الوفاض ، بادى الأنفاض ، وتلك حال تضجر النفس وترد الخاطر وهو كليل .

ولـكن ما الذى يقهرنى على الطواف حول المولد النبوى ؟ أنا أكتب الى مجلة ، والمجلات يحسن فيها التنويع والتشكيل والتلوين ، فلأتوكل على الله وأكتب عما صنع الاسلام فى إعزاز العقل ، والدعوة الى طهارة الوجدان :

(٢)

الاسلام يدعو الى إعـزاز العقل ، وهى ليست دعوة كلامية ، وإنما هى دعـوة عملية ، فالاسلام هـو الذى سن طرائق المنطق فى الجدل ، وعلم الناس كيف ينكرون ويعـرفون ، وكيف يضلون ويهتدون ، هـو الذى دعا الناس الى درس أنفسهم ، وحبب اليهم السير فى الأرض ، والنظر فى طبائع الأشياء .

لقد اصطدم الاسلام باليهودية والنصرانية ، أفتدرون ما صنع بالتوراة والانجيل ؟

ارفعوا عن أعينكم تلك الغشاوة التى توهمكم أن الرسول كان يتودد الى النصارى واليهود .

ارفعوا عن أعينكم تلك الغشاوة ، فان الرسول انتصر فى زمن قليل ، ولم يبق أمامه إلا التشفى من النصارى واليهود ، إن كان الاسلام يسمح لأهله بمكايدة المنهزمين .

انظروا فى القرآن ، أيها الناس ، فان فعلتم فسترونه تحدث عن موسى وعيسى وعن التوراة والانجيل بأساليب من الرفق لم يعرفها النصارى ولا اليهود .

إن موسى لم يثن عليه اليهود بمثل ما أثنى عليه القرآن ، وعيسى لم يثن عليه النصارى بمثل ما أثنى عليه القرآن . فما معنى ذلك ؟ أليس معناه أن الاسلام دين المنطق والعقل ؟ أليس معناه أن المعانى الباقية هى أول ما يحرص عليه القرآن ؟

كان يستطيع القرآن أن يسخر من الديانة اليهودية والديانة النصرانية ، ولـكنه لم يفعل ، لأن القرآن لم يكن إلا نفحة سماوية تعز الحقائق وتنصر المرسلين .

(٣)

ثم انتقل الرسـول الى جوار الرفيق الأعلى ، وبقى المسـلمون ينظرون بعيون الناس ، ويفقهون بقلوب الناس .

أتذكرون ماصنعوا ؟

لقد كانوا يملـكون الغض من اليهودية والنصرانية ، ولـكنهم لم يفعلوا ، لأن دينهم حبب اليهم كلمة الحق ، وأوصاهم بحب الأنبياء .

انظروا فى مؤلفات المسـلمين لتروا كيف أثنـوا على موسى وعيسى ، وكيف اقتبسوا من التوراة والانجيل .

انظروا ثم احكموا .

إن رجال الدين من النصارى واليهود لا يذكرون الاسلام فى مؤلفاتهم بغير الملام ، أما المؤلفون من المسلمين فلا يذكرون موسى وعيسى بغير الاعزاز والاجلال .

أكان ذلك يقع لو كان الاسلام راض أهله على عقوق العقل ؟

(٤)

آمنت بالله :

إن الاسلام حين يوصى باحترام جميع الأنبياء والمرسـلين إنما يشير الى حقيقة أبدية هى التعاون الانسانى على تطهير القلوب من أدران الشرك والرياء .

الاسلام أكبر من أن يقول إنه صنع كل شىء ، فهو يعترف بأنه ليس إلا خطوة سديدة موفقة تؤيد ما جاهد فى سبيله كرام الأنبياء من حرب الشرك ونصرة التوحيد .

وقد فهم المسلمون روح الدعوة الاسلامية ، فأقبلوا على درس ماوصل اليهم من آثار العقول ، ثم انطلقوا فاختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا ، وأغنوا العلم والفلسفة بألوف من المصنفات ، ولا يعرف العالم القـديم أمة أوغلت فى الفلسفة على نحو ما صنعت الأمة الاسـلامية ، وظل علماؤها وباحثوها يذكرون بالخير ، وإن أطافوا بمعالم الشك وتنكروا لأصول اليقين .

حارب الاسلام كيف شئت ، وخاصم أهله كيف أردت ، ولـكن ثق أنك مردود اليهم مادمت تحتكم الى العقل :

(٥)

قد تقولون : ولـكن تاريخ الاسلام لم يخل من أحداث حورب بها العقل .

نعم ، ولـكن هل وعدكم القرآن بأن الناس سيأ تلفون على الزمان ؟

إن القرآن نفسه دعا الى احترام الخلاف حين قال :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وحين قال :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

وتلك دعوة صريحة الى احترام الخلاف ، وفيها النص على إعزاز العقل ، فلولا الخلاف ما تقدم الناس فى دنيا ولا دين .

(٦)

أما بعد : ففى ظلال الاسلام تصاولت المبادئ والآراء والعقول .

وفى ظلال الاسلام اختلف أهل الشرق والغرب ، فكانت النحل والشيع والأحزاب .

وفى ظلال الاسلام نهضت دعوات جريئة لو نبتت فى غير حماه لقوبلت بالسيف .

وفى ظلال الاسلام عاشت ديانات حمتها رعايته من الانقراض .

وتحت الراية الاسلامية عاش الزنادقة والملحدون والسفهاء ، لأن الاسلام فى صميم روحه يحترم حق الحياة ، وفى الحياة شك ويقين ، وهدى وضلال .

فان كان فى إخوانى من يخاف على عواقب ما درجت عليه من قسوة الجدل وعنف النضال ، فانى أوجه اليهم هذا القول :

لا تخافوا على أيها الرفاق ، فانى أعيش فى ظلال الاسلام !

زكى مبارك

حسن الاعتذار عن الاصحاب

حكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش فى زمانه : ما رأيت قوما ألأم من إخوانك !

قال طلحة : مه ، ولم ذلك ؟

قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت تركوك .

قال طلحة : هذا والله من كرمهم : يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ، ويتركوننا فى حال الضعف بنا عنهم .

كيف نحيي المولد النبوى ؟

يوم هز جبروت الدنيا الكافرة ، أفلا تهز ذكراه قلوب مسلمين ؟

(١)

على هدى الذكرى ، تشيم عيون البصيرة ، ومآقى القلوب ، نور النبوة ، فاذا طهر أطهر ، وبهاء يبهر ، ونبل يغمر . هذا سنا السماء ، قد محا ظلام الغبراء ، وإنها لامحة يلمحها الحديد البصر ، ونفحة يتنسمها الملهم الحذر . فيأيها الشعراء بالحياة ، عشاق النور ، أولياء الحق ، هذا نعيم النفس فاغتبطوا ، ثم ما هذا النور المتألق ؟ ما هذا الجمع المتدفق ؟ أكلهم يهيم ويشيم ؟ واخجلتاه ! إنما هى جفان الثريد المترعة ، وبضع اللحم المشرعة ، وأقداح الشراب المروقة ، تتحلب لها أشداق ملتهمة ، وتضاحكها أفواه شرسة . هذا اهتزاز الممسوسين ، واختلاج الممروزين ، وخداع الأفاكين ، يصطنع أكثرهم دل الصوفية ، ويتصنع سمت الصالحين . هذه أعلام لا للكتائب ، ومراكب ليست من النجائب ، وجموع لا لحول ولا لصول ، ولا لخير من عمل أو قول ؛ لكنها داهية البطون الدهياء ، وفتنة الأوهام العمياء . وهكذا فى دنيا الكهرباء ، وأسرار الكون مجلوة ، ودقائق العلم مفترعة ، والحياة متلهفة متطلعة ، مناضلة مكافحة . يبتهج المسلمون على هذا النحو ، بذكرى سر النهوض ، وإكسير الغلبة والظفر ، وميلاد الدين والدولة والحضارة والمدنية ، فى شخص محمد عليه صلوات الله وسلامه . فأعذنا اللهم من شر خذلانك !

(٢)

حدثوا أننا تجددنا ، فرحنا نجدد قصة المولد ، نلتمس موقع الحقيقة من التاريخ ، ونصيب الحق من الرواية ، لنقول رشدا ، ونؤيد صوابا ؛ عفا الله عنا : هل فهمنا ذكرى المولد ، ووجدنا ريح النبوة ؟ ليت ذلك يكون !

وإنى لأسوق هنا حديثا قديما معادا ، يفهم منه الحديث الأخير المجدد ؛ فقد حدثوا أنه لما ولد عليه السلام ، خرج معه نور أضاء له مابين المشرق والمغرب ، فاضاءت له قصور الشام وأسواقها ، وقد رأى العباس رضوان الله عليه ، بعد أكثر من نصف قرن هذا النور ، واستضاء به ، مرجعه من غزوة تبوك ، إذ أراد مدح الرسول عليه السلام ، فقال :

وأنت لما ولدت أشرقت الـ ... أرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ... ـور وسبل الرشاد نخترق

أما والله لقد كان نورا سارت الدنيا على ضوئه ، واخترقت سبل الرشاد بهديه ؛ فلن يهول الحق أن يقال : سقطت شرفات الايوان لذلك المولد ؛ ففى الحق أن قد سقط الايوان كله بعد حين بذلك المولد . ولن يضير التاريخ أن يقال : خمدت نار فارس بهذا المولد ؛ ففى التاريخ أن قد امحت نار فارس بعد يسير بذلك المولد ؛ وكذلك يأبى المؤرخ المدرك سنن الله فى كونه أن يرد الأحداث لساعتها ، ويعللها بأقرب مما باشرها ؛ وفى مثل هذا من إدراك السبب الصحيح ، والأصل الأول ، يتفاضل الدارسون ، ويتفاوت المفكرون .

وما إخال هذا القديم من حديث النور فى شعر العباس ، إلا أحدث مايفهم به سر التاريخ وعلل الأحداث .

فهل نفهم المولد على ضوء هذا النور؟ وهل نحيي المولد على هدى ذلك النور ؟ !

(٣)

ألا لو أنا ندرك البعيد بالقريب ، ونقيس الغائب على الشاهد ، ونحس وراء ظواهر الدنيا حقائق تسيرهذه الظواهر ، ونواميس تتحكم فى هذا المتبادر ، لأدركنا النور النبوى إدراك العباس له ، وفسرناه تفسير العباس له ، ولأدركنا من قرب أن الشرق قاصيه ودانيه ، قد ألهته ظواهر الكون ، وخفيت عنه معانيه ، ولشعرنا أننا اليوم فى أضيق مما بين حجرى الرحى ، وأقطع من شق المقص ، وما هو إلا نفس غاز خانق ، وآخر محرق ؛ فاذا نحن حديث فى التاريخ ، وعبرة لمن يدرك الحياة ، ويشعر بمكانه فيها .

لو أدركنا هذه الأسرار التى أحالها الاسلام فى حياته الأولى حقائق ، وردها وقائع ، لأنفنا وأكبرنا ، ولخجلنا وامتعضنا ، من أن يكون إحياؤنا لذكرى المولد النبوى الذى هز أركان الجبروت فى الدنيا ، لا تكفى لتهز قلوبا تزعم الايمان وتراض بالاسلام .

لو أدركنا أن وراء السطح معانى ودقائق ، لأحلنا يوم المولد أجل من يوم عطلة ، ولعبة حلوى ، وقصعة ثريد ، وثريا نور ، وخرقة ملونة ، وهزة مجذوب ، وموكب ذكر ، وموسم نكر . وأن نترك بعض ذلك والسائغ منه للأطفال والسذج والأغرار . فأين من إحياء هذه الذكرى نصيب المفكرين الكبار ، والمجاهدين الأحرار ؟ !

(٤)

ألا إن هذا المولد ذكرى ميلاد دين ، وأول حياة دولة ، ومشرق حضارة ، ومطلع حرية ، وبشرى اتحاد كلمة ، واجتماع شمل ، وتكون أمة .

وما للشرق اليوم من ذلك كله قل ولا كثر ، فهل يلتمس عقلاؤه مواسم لمولده الجديد ، ومبعث عزه العتيد ، أجل وأسمى ، وأقرب الى القلوب من موسم ذلك المولد !

فتى ينتهي إحياء الكبار لهذا المولد وذكراه الى عمل يوائم جلالته ، ويلائم عظمته ؟

ومتى نتناول الحياة تناولا جديا ، وننظر اليها نظرا عمليا ، ونعرف موقف الاسلام ورسالته فيها ؟

متى نستشعر عظمة تلك البطولة ، ونكبر تقاليدها ، ونقتبس من نورها ، وندرك أنها إنما كانت إحياء للحياة ، وتسييرا للدنيا ، فيكون إحياؤنا لعيدها مظهر إدراك سرها ، وآية فهم لبابها ؟

متى نوقن أن الاسلام خطة فى الحياة ، وشرعة للمجد ، وسبيل الى العزة ، فمواسمه جولات فى الحياة ، وأعياده محافل المجد ، وذكرياته مظاهر للعزة ؟

متى يكون إحياؤنا للمولد ، إن قولا ، فقول نافع ، لا لغو ذاهب مع الريح ، قول يزيد ثروة المعرفة ، فهو مثلا قول فى تأليف ناضج يقدم يوم المولد عن دور من أدوار حياة الرسول عليه السلام ، أو تاريخ عصر من عصور تلك الحياة ، أو درس لجانب من جوانب عظمة تلك الشخصية ، فيظهر فى ذلك اليوم فيمنح جائزة تجمع ما يتفرق من جهد رجال القول اللاغى ، والصحافة الثرثارة ، فى تكرار أقوال معادة مملولة ، ليس فيها جديد ولا بينها مفيد ؟

ومتى يكون إحياؤنا للمولد ، إن عملا ، فعمل من الاحسان المنظم ، يصرف ما يبدد فى الهواء من أموال الاحتفاء الساذج بهذا المولد ، فى موضع الحاجة من حياتنا ، ويسد عوزنا ، من الصحة ، والخلق ، والدين ؟ لقد ولد عليه السلام يتيما ، فما أجمل أن يكون مولده مفتتح منشأة تقى اليتامى وتستحييهم ، وترد على الأمة ضائع نبوغهم واستعدادهم . وعاش عليه السلام فقيرا يجاهد للفقراء ، فما أجمل أن تكون ذكرياته عملا فى مطاردة الفقر ، وتأسيس معاقل القضاء عليه ، وصون ما يبدد من جهد ، وعقل ، وخلق ؟ فبذلك تحيا الذكر ، ويخلد الأثر !

ثم متى يكون إحياؤنا لمولد الأمة والدين والحضارة إحياء لجانب من وجودنا ، وإعدادا لما نستطيع من قوة ، ومن رباط الخيل ، نتقى به عوادى الدهر ، وأحداث الزمن ، وجور الظلم ، فنبتهج فى تلك الذكرى بما هو خليق بها من خطا جديدة فى مسيرنا نحو الغاية النبيلة التى كان مولد الرسول عليه السلام الخطوة الأولى فى الاتجاه إليها ؟!

ثم متى يكون هذا المطلب فى إحياء المولد خطة عاملة ، يؤيدها عزم أولى العزم منا ، وتفيض عليها بركة البطولة المحمدية ، وقوة الارادة النبوية ؟!

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أمين الخولى
المدرس بكلية أصول الدين

أساس الرقى فى الاسلام

إننا نحب العظماء ، ونمجدهم ، ونحيي ذكراهم ، لأنهم ذوو نفع للانسانية ، عاشوا لأجلها وماتوا لأجلها .

ونحن نحب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ونمجده ، ونعد يوم مولده عيدا نحتفل به لأنه أخرج العالم من الظلمات الى النور ، ووضع بذور الخير والبركة فى الأرض ، وسن من أصول التشريع فى الأخلاق والاجتماع ما على مثله تحيا الأمم ، وترقى الشعوب .

وقد تحرى المسلمون فى العصر الأول التأسى به ، والعمل بارشاده ، فسعدوا ، وكانت لهم عمارة الأرض ، ثم تنكب الخلف من بعدهم طريقه شيئا فشيئا ، فبعدوا من الخير والسعادة بمقدار بعدهم عن ذلك السبيل القويم .

وإن خير ما يسديه المحتفل بميلاده الى أمته أن يعمد الى سنة من سننه قد درست فيحييها ، والى هدى من هديه قد ضل الناس عنه فيهديهم اليه .

وقد أخذت نفسى بهذا ، وأردت أن أنشر من هديه صلى الله عليه وسلم أبعده أثرا فى إصلاح المجتمع ، وأعظمه بركة فى سعادته .

أردت أن أدرس هديه صلى الله عليه وسلم ، وأعرضه على علم الاجتماع ، وتاريخ الامم والشعوب ، فأعثر على ذلك الاكسير الذى لما أخذ به الأولون من أهل الاسلام كانت لهم العزة فى الأرض ، ولما تنكبوا عنه ضلوا عنها أو ضلت عنهم .

لقد اهتديت بعد لأى الى ذلك الاكسير الذى هو سر عظمة الأمم قديمها وحديثها ، ورأيت محمدا لم يغفله ولم يهمله ، بل رأيته قد علمه وحض عليه ، وكانت سنته القولية داعية اليه ، وسنته الفعلية مثالا حيا له ، ليستفيده الناس بالعلم والعمل ، ويتمكن فى نفوسهم فضل تمكن ، فيمكن لهم بذلك فى الأرض .

لن أختزن ذلك الاكسير ، ولن أضن به ، بل سأبينه وأذيعه ، فان أمم الشرق أحوج ما تكون اليه الآن .

ذلك الهدى : هو الرفق بالناس ، وترك الشدة عليهم ، ومعاملة بعضهم بعضا باللين والعدل .

وسأوضح أثر هذه المعاملة فى الممالك والمجتمعات ، وأثر ضدها السيء فى الناس ، وأذكر معاملة النبي أصحابه وما ورد فى ذلك ، وأبين أن المسلمين كانوا بخير حينما ساروا على هذه السياسة الرشيدة ، فلما أخذوا عنها يمينا ويسارا أخذ عنهم الخير يمينا ويسارا .

ليس شيء أشد ضررا بالأمة ، ولا أضعف لها ، وأدعى الى انحلالها وزوالها ، من معاملة بعضها بعضا بالشدة والقهر والغلب .

ذاك لأن الشدة والقهر والعنف تضعف النفوس ، وتميت فيها العزة والكرامة ، وتخلق فيها المذلة والهوان ، وإذا وجدت هذه في الأمة أو فى الأفراد لم تسم نفوسها الى جليل ، ولم تضطلع بخطير ، وكانت حقيرة فى نفوسها هزيلة الأمل ، ولا سؤدد لحقير فى عين نفسه ، ولا عمل لمن فقد الأمل .

فاذا عامل الرجل زوجه ، والوالد أولاده ، والمربى تلاميذه ، والرئيس مرءوسيه ، والوالى من ولى عليهم ، وكل ذى سلطان من سلط عليهم ، بالقهر والشدة ، أفسدوا نفوسهم ، وأذلوهم ، وقتلوا فيهم روح الاعتداد بالنفس والعزة والكرامة ، وهى عدة الفرد والجماعة فى هذه الحياة .

فاذا رأيت شعبا يسير على هذه الخطة فاعلم أنه يحفر قبره بيده ، وأنه يسيء الى نفسه بما لا يقدر أعدى أعدائه أن يسيء به اليه .

وليس شيء أصلح للأمة وأنفع لها وأدعى الى قوتها وبقائها من معاملة بعضها بعضا بالرفق واللين والعدل ، لأن ذلك يقوى نفوسهم ، ويحيي فيهم الكرامة والعزة والاعتداد بالنفس ، والمرء إذا وجدت فيه هذه الصفات سمت همته ، وبعد أمله ، ورأى نفسه ليس يبعد عليه شيء فى الحياة ، وعمل ما يمليه عليه سمو همته ، وبعد أمله ، وقوة إرادته ، وعاش شخصا قويا مستقلا يقوم بنفسه ، ويأبى أن يكون ظلا لأحد أو محمولا على غيره .

فاذا رأيت الوالد يعامل بنيه بالرفق واللين فاعلم أنه يبنى منهم رجالا أشداء أقوياء أعزاء . وكذلك قل فى المربين والرؤساء والولاة .

هذه قواعد علمتها الأمم العالمة ، فسلكت سبيل النجاة ، وجهلتها الأمم الجاهلة ، فسلكت سبيل الفناء .

وإنى لأستعرض حياة أمم أوربة اليوم ، فأجد الأمة منهم يعامل كل ذى سلطان فيها من هم تحت يده بالرفق واللين ، وأجدهم يحفلون باستقلال المرء بنفسه ، فيفرطون فى كل شيء ولا يفرطون فيه ، لذلك حفظت للمرء فيهم ذاتيته كاملة ، واستتبعت هذه الذاتية بعد ذلك آثارها كاملة .

تجد المربى فيهم لا يأخذ المتعلم بالعنف ، إنما يحبب إليه العلم والأخلاق الفاضلة ، ويخلق فى نفسه القوة المحركة الى طريق العلم ، والخلق الفاضل ، فيسعى اليهما من ذاته راغباً مشتاقا ، تحدوه المحبة ، ويبعثه الأمل .

ولا يسلك الى ذلك سبيل العنف والشدة ، لأنه يعلم أنه يفقده بذلك شجاعته واستقلاله

وكرامته ، فيكون مايعطيه بعد ذلك أقل بكثير مما أفقده ، ثم هو بعد ذلك لايتحرك إلا بمحرك خارجى ، فاذا ونى ذلك المحرك أو فقد ، زالت كل بواعث الخير والصلاح التى كانت تحدوه إليهما .

وإنى لأستعرض تاريخ الأمم الاسلامية فأجد فى أولها العزة والمنعة والظفر والانتصار ، لأخذها بمبدأ الرفق والشفقة ، فلما أضاعت هذا المبدأ وعامل الوالد أبناءه بالشدة والغلظة ، وعامل المربون تلاميذهم بالقهر ، وعامل كل ذى سلطان من ولى عليهم بالغلبة ، عملوا على إفساد بعضهم بعضا ، وبلغوا من أنفسهم مالم يبلغه منهم أعداؤهم ، وصاروا الى ما صاروا اليه .

وليست تعاليم أوربا بأشد حرصا على الرفق واللين وأكره للغلظة والشدة من تعاليم الاسلام ، فان الاسلام كان يعلم ما فى الشدة والقهر من شر ، ويعلم ما فى الرفق من خير ، فشدد النكير على الشدة والقهر ، وحض على الرفق واللين ، ولكن المسلمين أضاعوا تعاليم دينهم ، فبعدوا عن الخير بقدر ما بعدوا عن هذه التعاليم .

قال الله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » ، فامتن على المؤمنين بأن من أرسل اليهم رءوف بهم رحيم ، لعلمه بما فى الرأفة والرحمة من الخير لهم ، وليعلى من قدر الرأفة والرحمة ، ويحضهم عليهما .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كانت بيده جريدة يتساك بها ، ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ما هذه الجريدة التى كسرت بها قرون أمتك وملأت قلوبهم رعبا ؟

لم يرض للمسلمين أن تكون بيد رسولهم جريدة ، لئلا يملأ قلوبهم رعبا ، ويكسر قوتهم ، فلا يصلحوا للاسلام ولا لأنفسهم ، فأى والد بعد ذلك يروح ويغدو على أولاده بالقهر والشدة ؟ إنه لا يفعل ذلك إلا من أراد إفسادهم ، وكسر حدتهم ، وإماتة قلوبهم .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الى القصاص من نفسه فى خدشة خدشها أعرابيا لم يتعمده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا ! فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الأعرابى فقال : اقتص منى . فقال الاعرابى : قد أحللتك بأبى أنت وأمى ما كنت لأفعل ذلك أبدا ، ولو أتيت على نفسى ! فدعا له بخير .

وإنما كان منه ذلك ليعلم المسلمين أنهم سواسية ، وأنهم متساوون فى الحقوق ، وأن أعراضهم ونفوسهم وأموالهم حرام بعضهم على بعض لا يحل لهم شىء من ذلك إلا فى حق من حقوق الله .

وذكر ابن سعد فى الطبقات الكبرى فيما أوصى به رسول الله فى مرضه الذى مات أنه دخل المسجد وهو معتمد على الفضل بن عباس فقال : « أيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئا فهذا عرضى فليقتص ، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئا فهذا بشرى فليقتص ، وأيما رجل

كنت أصبت من ماله شيئا فهذا مالى فلياخذ ، واعلموا أن أولاكم بى رجل كان له من ذلك شيء فاخذه أو حللنى فلقيت ربى وأنا محلل ، ولايقولن رجل إنى أخاف العداوة والشحناء من رسول الله فانهما ليستا من طبيعتى ولا من خلقى ، ومن غلبته نفسه على شيء فليستعن بى حتى أدعوله » .

هذه كانت سياسة النبى أصحابه ، فقد سمع فيهم قول الله تعالى: «واخفض جناحك للمؤمنين» وقد سار أصحابه هذه السيرة : فأقاد أبو بكر من نفسه ، وأقاد عمر من نفسه ، وسار الخلفاء فى رعيتهم سيرة رفق ورحمة ، ثم خلف من بعدهم خلف لم يعلموا مافى الرفق من خير ، أوهم علموا ولكن غلبت عليهم شهواتهم ، فسفكوا الدماء ، وشقوا الأبشار ، وخربوا الديار ، وأخافوا الرعية ، فأماتوا تلك النفوس الأبية ، وخلقوا أجيالا أذلاء ، فلم يكن فيهم غنى لهم ولا لأنفسهم .

من حق على الناس وقد بينت لهم أساس رقى الأمم وسعادتها أن أطلب أجر هدايتهم ، وأجرى عليهم أن يهتدوا بذلك الهدى النبوى ، فيرفق المرء باولاده ، ورب الأسرة بأسرته ، والمعلم بتلاميذه ، وكل ذى ولاية بمن ولى عليهم ، وأن يلزموا ذلك لزوم من يعلم أنه إذا تركه هلك ، وأن يؤمنوا بأن الشدة لاتلد إلا الأشرار ، وأنها أجدر ألا يعامل بها الأولياء ، وإذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا تلك الحكمة الذهبية : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »

محمد عرفه

الادب حلية العاقل

روى الأصمعى أن أعرابيا قال لابنه : يا بنى : الأدب دعامة أيد الله بها الألباب ، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب .

وقال حكيم : الأدب صورة العقل ، فصور عقلك كيف شئت .

وقال آخر : العقل بلا أدب كالشجر العاقر ، ومع الأدب كالشجر المثمر .

وقال غيره : الفضل بالعقل والأدب ، لا بالأصل والحسب ، لأن من ساء أدبه ، ضاع نسبه ، ومن قل عقله ، ضل أصله .

وقال بليغ : الادب يستر قبيح النسب .

ذكرى الرسول الأعظم

الكون أشرق نضرة ونعيما ... هـذا مكانك فاتخـذه كريما
حن الزمان اليك حتى جئته ... فطـوى الحنين وردد التسليما
أنت المؤمل للشعوب ، وهـذه ... دنياك لا تبغى سـواك زعيما
خذها من القوم الألى جحدوا بها ... واشرع لهم نهج الحياة قـويما
داو السقام فقـد تفاقم وانثنى ... طب الألى سبقوك عنـه سقيما
هاتيك (مدرسة الحياة) تقدمت ... تلقى أجـــل شيوخها تعليما
ماذا حملت من المعارف والنهى ... لما حملت كتابها المرقـوما ؟
(علم الحضارة) كان قبلك خافيا ... فأتيت تظهر سره المكـتوما
والحـق ما عـرف الدعاة سبيله ... حتى أقمت بنــاءه المهدوما
بلغ رسالة من أقامك هاديا ... وحباك فضلا من لدنه عظيما
ضل الألى جحدوه واتخـذوا له ... شركاء من أربابهم وخصوما
ما هـذه الأرباب ؟ ما لعبادها ... جهـلوه ربا واحـدا قيوما ؟؟
جاء (الأمين الصادق الهادى) فمن ... يـكفر بدين الله كان ظلوما
رجفت قلوب المشركين لدعـوة ... طفقت تردد فى البطاح هزيما (١)
قالوا : أيطمع أن يضل (محـمد) ... منا عقـولا رجحا وحـلوما ؟
أنعـزه ونذل من أصنامنا ... ما عظم السلف الأعز قديما ؟
إنا لنأنف أن يغـير ديننا ... رجـل قليـل المال شب يتيما
إن يتبع النفـر الضعاف سبيـله ... فلنحن أمنـع بيضة وحـريما
إن المطاول بالرجال إذا بنى ... جعـل الدعائم عـادة وقـروما

***

هم شاغبـوه فـكان أعظم قـوة ... وأعز منزلة ، وأشرف خيما (٢)
وجـدوه سمحا لا يضيق بمذنب ... ورأوه موفـور الأناة حليما
يدعو لهم : رب اهد قومى إنهم ... لا يعلمون ، وكنت أنت عليما
لو شئت ماجهلوا السبيل ولا رضوا ... دينا من النمط الغبى ذميما
إنى رسولك ، لن أمـل جهادهم ... أو يعبدوك ، ولن أكون سؤوما

(١) الهزيم: صوت الرعد (٢) الخيم : الطباع .

يا قوم ماذا تعبدون ؟ تأملوا … من قبل أن تروا العذاب أليما
دين الحجارة ، وهو من آثامكم … خير لكم ، أم دين (إبراهيما) ؟
أرسلت بالاسلام دينا قيما … وبعثت خيراً للشعوب عميما
الكفر والبغي الذميم كلاهما … جملا الحياة على النفوس جحيما
فلأغسلن الأرض من أرجاسها … ولأصدعن ظلامها المركوما

* * *

بعثوا إليه من المخافة عمه … يزجى الرجاء مخيبا محروما
زعموه حران الجوانح يبتغى … دنيا الغواة ووردها المسموما
قال : اتئد يا عم ، إني وراءهم … خطباً يشق على النفوس جسيما
النيران لو انهم جعلوهما … بيدى زدت صرامة وعزيما (١)
والله لن يجدوا لدى هوادة … حتى يفيئوا ، أو أكون رميما
عرفوه فاتخذوا السبيل الى الأذى … وتآمروه مذمما مشئوما
وتألبوا يتهللون بقتله … قتلا يرون قضاءه محتوما
يا بؤس للرأى المضلل إنهم … طلبوا دما من كيدهم معصوما
لاموه وانقلبوا الى شيطانهم (٢) … فقضى القضاء لهم ، وكان رجيما
أيكون من كره الضلال لقومه … ووفى لرب العالمين ملوما ؟
الله أيده وقام بنصره … فنجا ، وأدبر جمعهم مهزوما
بوركت من واف يصاحبه أخ (٣) … صاف ، وبورك صاحبا وحميما
محيا النفوس وقى الاله حياته … وسلامها المأمول راح سليما

* * *

إن الذى أخلى الديار مهاجراً … ملأ النفوس وساوسا وهموما
بعثوا الأسنة والسيوف وراءه … فاعادها تجرى دما وكلوما
رجعت مخيبة تذيب ظنونهم … فتذيب أرواحا لهم وجسوما
ماذا يظن المفسدون بمصلح … يبنى ويهدم ظاعنا ومقيما ؟
الكوكب السيار فى آفاقه … ملأ البلاد أهلة ونجوما
أنصار دين الله حول نبيه … وصلوا (بيثرب) حبله المصروما
من (خزرجى) المجد أو (أوسيه) … طابوا فروعا فى العلا وأروما
أحبب به من قادم ما مثله … فى النازلين وفادة وقدوما

---

(١) العزيم والعزيمة بمعنى (٢) هو ابو جهل لعنه الله (٣) أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

يا فاتح الدنيا ، ومانح أهلها ... ماعز مرجوا وجل مروما
أنقذت هذى الأرض من آلامها ... وشفيت هذا العالم المحموما
بالساطعات الشافيات من العمى ... يطغى غياهب ، أو يموج غيوما
الله أنزلها عليك دراريا ... طلعت معالم للهدى ورسوما
أوتيت بالفرقان مشرع حكمة ... مازلت تورده النفوس الهيما (١)
خرف الزمان ، وأخطأت حكماؤه ... سبل السداد ومايزال حكيما
لولا بلاغته وروعة نظمه ... جهل الرجال اللؤلؤ المنظوما
كنز البيان ، فمن تطلب للغنى ... كنزاً سواه قضى الحياة عديما
فضت علوم الدهر منه جانباً ... وغداً تفض الجانب المختوما
متجدد فى كل عصر يبتغى ... أمماً تجىء جديدة وفهوما
(دستور حق) فى يمين (محمد) ... يحمى الضعيف ، وينصف المظلوما
يتملق المولى المعظم عبده ... فيه ، ويخشى الحاكم المحكوما
قسم الحياة على النفوس وإن أبى ... من لا يريد نصيبه المقسوما
لم يخلق الله القوى بملكه ... ليكون وحشى الطباع غشوما
والأرض ما بسطت لتجحد ربها ... وتعد من ظلم العباد أديما

***

يا (مولد المختار) أنت بعثتها ... ذكرى تساجل دمعى المسجوما
أبكى على الاسلام يذهب عزه ... ويبيت مطوى الجناح مضيما !
نهضت شعوب الأرض ترفع مجدها ... وأرى شعوب المسلمين جثوما !
لزموا تخوم بيوتهم ، وغزاتهم ... لا يرتضون سوى النجوم تخوما
قوم هم اتخذوا بكل محلة ... كهفاً يضم نيامهم ورقيما
أو كلما جذب المقادة مصعب ... فى الشرق غودر أنفه مخزوما ؟ !
لاهم جنبنا المجاهل واهدنا ... هذا السبيل المعلم الموسوما
وتولنا فى الحادثات وكن بنا ... فى النائبات إذا تنوب رحيما !

(١) الهيم: العطاش.

احمد محرم

على ذكرى الميلاد النبوى

خلقه صلى الله عليه وسلم ، وأثره فى نجاح الدعوة الاسلامية

هداية الناس ، وإصلاح الأمم ، وترقية العمران ، وتوفير النظام ، وإسعاد المجتمع ، وما يتصل بذلك ، وما يساعد عليه — هذه كلها أمور تعتبر فى جملتها وتفصيلها الغرض الأكبر للديانات والشرائع ، والمقصد الأهم للدعاة والمصلحين .

والذين يختارهم الله تعالى من عباده الممتازين لأداء هذه المهمة العظيمة ، يختار لهم الى جانبها أمضى الأسلحة ، وأنجع الوسائل ، وأقوم السبل ، وأقوى الأسباب ، حتى يكونوا ميسرين لأداء مهمتهم ، ومجهزين بما يعينهم على القيام بأعبائها ، والاحتمال لصعابها .

ولو أننا استعرضنا جميع هاتيك الوسائل والأسباب وما إليها ، ونثرنا كنانتها ، وسبرناها على ضوء التجربة والاختبار ، لما وجدنا بينها وسيلة أصلح لانجاح الدعوة ، ولا سببا أنفع فى إبلاغها آخر مداها ، من الشيم الجميلة ، والأخلاق الكريمة ، والصفات النبيلة . فهى وحدها التى تجتذب القلوب النافرة ، وتذلل النفوس الجامحة ، وتفل حدة العناد ، وتسل السخائم والأحقاد ، وتتغلب على روح العصبية ، وتقضى على بواعث الاستكبار والاستنكاف . وهى وحدها التى تستطيع أن تشق الى التفاهم طريقا معبدا ، وأن تسلك الى الوفاق مسلكا مسددا ، فتسهل على الداعى دعوته ، وتهون أمام المصلح مهمته .

وعلى العكس من ذلك جفوة الخلق ، وخشونة الطبع ، وسوء المعاملة ؛ فانها تباعد بين الناس وبين قبول الحق ، وتملأ نفوسهم بالكراهة له ، والاشمئزاز من صاحبه ، وتزرع فى قلوبهم العداوة والبغضاء ؛ فتتعرض الدعوة للفشل ، ويصاب الداعى بالهزيمة والاندحار .

ونظرة واحدة الى ما اختص الله به نبينا الأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم من كريم السجايا ، والى ما حباه إياه من حميد الخلال ، تجعلنا نحكم لأول وهلة بأنه صلى الله عليه وسلم فى طليعة الكملة من الهداة والمرشدين ، وفى مقدمة الخيرة من الأنبياء والمرسلين .

***

وليس يسيرا أن يتحدث المتحدث فى مثل هذا الفصل القصير عن مزاياه كلها صلى الله عليه وسلم فى هذه الناحية الخصبة الوفيرة ، وحسبنا من ذلك أن نقدم غيضا من فيض ، وأن نعرض زهرة من روض :

عرف صلى الله عليه وسلم بين قومه وعشيرته منذ نعومة أظفاره بحسن الخلق ، وكرم

الطباع ، وحلو الشمائل ، والنفرة من عادات الجاهلية وتقاليدها المرذولة فى العقيدة والأعمال . ونشأ مشهورا بينهم بالصدق والأمانة والعفاف ، فسما به ذلك الى مكانة ممتازة بينهم ، جعلته محلا لثقتهم ، وأهلا لتقديرهم . فكانوا يودعون عنده ودائعهم ، ويأتمنونه على أماناتهم ، ويحكمونه فيما شجر بينهم .

حدث سنة خمس وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ، أن هدمت قريش الكعبة ، وأعادت بناءها ، فلما بلغ البنيان موضع الركن ، اختلفوا على وضع الحجر الأسود ، وأرادت كل قبيلة رفعه الى موضعه ، طلبا للشرف والفخر ، حتى تحالفوا وتواعدوا للقتال ، ومكثوا على ذلك أربع ليال ، ثم تشاوروا ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش : اجعلوا بينكم حكما أول من يدخل من باب المسجد ؛ فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، قد رضينا به ، وأخبروه الخبر ، فقال : هلموا الى ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ؛ فلما بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ، ثم بنى عليه .

وعند ما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غار حراء الى خديجة رضى الله عنها ، بعد مجيء الملك اليه ، وإخبارها بخبره ، قال لها الرسول : لقد خشيت على نفسى ؛ فقالت له خديجة : كلا ، والله مايخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق !

ولما دعا هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب فى ركب من قريش ، ليسأله عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان من جملة ما قاله هرقل لأبى سفيان :

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ؛ وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ؛ فان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه !

***

هذه ثلاث شهادات صادقات ، تنطق له صلى الله عليه وسلم بكمال سيرته الأدبية ، وبنبل صفاته الخلقية ، قبل البعثة وبعدها ، وتدل أوضح الدلالة على أن أخلاقه الكريمة ، قد خلعت على دعوته ثوبا من حسن الظن بها ، والثقة فيها ، وفتحت الباب على مصراعيه امام نفوذها

الى القلوب والنفوس ، وجاءت أصدق دعاية لها ، وخير تقدمة بين يديها ، ففازت هذه الدعوة بالنجاح ، وظفرت بالنصر .

***

أما بسط خلقه صلى الله عليه وسلم ، ولين عريكته ، وكرم عشرته ، وجمال أدبه ، وحسن معاملته ، فهذه حديثها يطول ، والقول فيها لا يقف عند حد .

قال قيس بن سعد بن عبادة : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حمارا وطأ عليه بقطيفة ، فركب ، ثم قال سعد : ياقيس اصحب رسول الله . قال قيس فقال له عليه الصلاة والسلام : اركب ، فأبيت ، فقال : إما أن تركب ، وإما أن تنصرف . فانصرفت .

ودخل عليه رجل ، فأصابته من هيبته رعدة ، فقال له : هون عليك ، فانى لست بملك ، إنما انا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد .

وكان صلى الله عليه وسلم يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يشافهه بمكروه ، ولا يطلب عورته ، ولا يسمع وشاية الواشين . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا ، فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وكان يقابل السيئة بالحسنة ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق والمسألة ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل عنهم ، فان كان احدهم غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده . وكان إذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويعطى كل واحد من جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده صلى الله عليه وسلم منه ، حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها ؛ ولم ير قط مادا رجليه بين أصحابه . يكرم من يدخل عليه منهم ، وربما بسط له رداءه ، وآثره بالوسادة التى تحته .

وكان صلى الله عليه وسلم كبير المهابة ، عظيم الوقار ، فكان يبسط أصحابه بالمزاح الحق ، والدعابة الصادقة ، وكان يضحك مما يضحكون ، ويسر بما يسرون .

جاءه صلى الله عليه وسلم رجل ، وطلب أن يحمله على بعير ، فقال له : إنى حاملك على ولد الناقة ، فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهل تلد الابل إلا النوق ؟

ويذكر بعض أصحاب السير أن نعيمان بن عمرو الانصارى كان إذا دخل المدينة طرفة ،

اشتراها فى ذمته ، ثم جاء بها الى النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : يا رسول الله ، هذه هدية ، فاذا جاء صاحبها يطلب ثمنها ، جاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أعط هـذا ثمن ما جئت به اليك ، فيقـول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولم تهـد ذلك لى ؟ فيقول : يا رسول الله ، لم يكن عنـدى ثمنه ، وأحببت أن يكون لك ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمر لصاحبه بثمنه .

***

إن المتأمل فى هذه المناقب الشريفة ، والخصال الحميدة ، لا يتردد لحظة واحدة فى القطع بأنها أقدر على جمع القلوب ، وأفعل فى استمالة النفوس ، وأنفذ الى مكامن الشعور والعواطف من أية وسيلة أخرى غيرها من تلك الوسائل العادية المعروفة ؛ وبأن البشرية مهما ابتكرت من أساليب السيطرة والاستيلاء ، وافتنت فى طـرق المغالبة والقهر ، لا يمكن لها أن تأتى فى هذا الباب بما يعدل حسن الخلق ، وطيب الصفات ، ولا بما يدانيها قوة وتأثيرا .

ولذلك استطاع صلى الله عليه وسـلم بأصالة رأيه ، ورجاحة عقله ، وثقـوب بصيرته ، وجودة سياسته ، وحسن تدبيره ، وما اليها من المزايا العالية المستمدة من جمال الخلق ، وكمال التربية ، أن يسوس العرب ، ويحتمل جفاهم ، وأن يتسع صدره لخشونتهم ، ويصبر على أذاهم ، حتى انقادوا له ، وآمنـوا بدعوته ، والتفوا حـوله ، وقاتلوا وقتـلوا دونه ، وحتى فضلوه على أنفسهم ، وقدموه على أبنائهم وآبائهم وأهليهم . وهكذا يفعل الخلق الطيب ما لا تفعله النار والحديد .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . « وإنك لعلى خلق عظيم » .

فكرى يس
المدرس بالازهر

ذم البخل وأهله

قال حكيم : البخل جلباب المسكنة .

وقال بعض الأدباء : البخيل ليس له خليل .

وقال غيره : البخيل حارس نعمته ، وخازن ورثته .

ليس المراد من قوله خازن ورثته أن الأجدر بصاحب المال أن ينفقه على نفسه غير مدخر لورثته ما يعصمهم عن المسألة ، فان هـذا من التبذير ، ولـكن المراد التوسط فى الانفاق ، والقصد فى الاختزان ، وكلاهما معروف لا يحتاج لبيان .

ميلاد الرسول

فجر أطل على الوجود فأطلعا ... شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى ... من بعده شيئا كمكة مطلعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع ... لألاؤه فوق البسيطة موضعا
ما كان ميلاد الرسول المصطفى ... إلا الربيع نضارة وتضوعا
يوم أغر كأنك منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله ... يثني اليه جيده متطلعا
فلو استطاع الكر من أحقابه ... وثبا على هام السنين ، ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى ... ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى ... أني جرى ترك الجناب الممرعا
وسناً جلاه لتعمر الدنيا به ... من بعد ما كانت خرابا بلقعا
وافى ، وليل الجاهلية مطبق ... فانجاب عن جنباتها وتقشعا
وكذا الهداية إن قذفت بها على ... ركن الغواية والضلال تصدعا
نادى الى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا ... مستلئما لاقى الطغاة فروعا
والحق أخفى ما يكون مجرداً ... وتراه أوضح ما يكون مدرعا
والحق ليس بمعتد لكنه ... إن دافعته يد الضلال تدفعا
مثل الرياح جرت رخاء ثم لم ... تلبث فهبت بعد ذلك زعزعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينثني ... عن غيه حتى يخاف ويفزعا
إن الرسول محمداً صبح بدا ... من راح يعثر فى سناه ، فلالعا
وافى بها بيضاء ، عدل كلها ... لا تلفين بها الضعيف مضيعا
الناس كلهم سواسية بها ... لا قيصراً تلقى بها أو تبعا
والناس أكرمهم بها أتقاهم ... ولو انه كان الفقير المدقعا

دخلت على الجبروت وهو مقطب ... صلفاً فابصر وجهها فتفـزعا
وأبى له حب البقاء وطبعــه ... إلا الصيال ، فصاولت ، فتضعضعا
الفرس ، والرومان لم يعصمهما ... ملك الممالك كلها أن يصرعا
من لم تزعزعه العواصف قبلها ... بعثت له بنسيمها فتزعزعا
ثلت عروش الظالمين وملكهم ... وبنت لعرش العدل ملكا أوسعا
وجرى العباد على السجية سجداً ... لله ، لا لمسخريهم ، ركعا
وتراهم حـول النبي فـلا ترى ... متملقاً أو خائفا متخشعا
دين المساواة الصحيحة دينـه ... يرعاهم فى الله أشفق من رعى
جاءت له الدنيا فأعرض زاهـداً ... يبغى من الأخرى المكان الأرفعا
ما جر أثواب الحرير ولا مشى ... بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حلة ... فضفاضة ، لبس القميص مرقعا
وهو الذى لو شاء نالت كفه ... كل الذى فوق البسيطة أجمعا
لم يبغها ملـكا عضوضاً بل دعا ... لله لا لسواه أفضل من دعا
مسك به اختتم المهيمن رسله ... وأبان أمر الدين والدنيا معا
يامصطفى أدعوك دعوة شاعر ... وافى إليك بشعره مستشفعا
هب لى من النفحات ما أشفى به ... نفساً معـذبة ، وقلبا موجعا
فلعل صدراً أن تزول همومـه ... وعليل قوم أن يصح وينفعا
ولعل ذابـلة الرجاء ينالها ... بلل من الغيث العميم فتينعا
صلى عليك الله جـل جلاله ... دنيا وأخرى ، شافعا ومشفعا

محمد الأسمر

—

أعظم مثال لتواضع العظماء

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر مناديا ينادي : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم قال : أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لى من بنى مخزوم ، فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب ، فاظل اليوم وأى يوم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك . فقال عمر : ويحك يا ابن عوف إني خلوت فحدثتني نفسي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك !!

دراسة فى حياة محمد

صلى الله عليه وسلم

إن انتشار اللغات الأجنبية فى الشرق مكن المتعلمين من أبنائه من الاطلاع على ما كتبه الأوربيون فى السيرة النبوية، وأكثره يحتاج لتقويم، فاذا بقى على علاته انحرف بهم عن الجادة التى يجب أن يقوموا عليها لفهم سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

لذلك أصبح من الواجب علينا أن ننظر فيما قاله الكتبة الأوربيون لنصحح الباطل من آرائهم فينا، ونقوم المعوج من أحكامهم علينا.

من أسبق هؤلاء الكتبة الى إنصاف الاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام، المستشرق الافرنسى المسيو (سافارى)، فقد وضع سيرة نبوية مختصرة، اعتمد فيها على ما قاله علماء الاسلام، ثم أتبعها بآرائه وملاحظاته الخاصة.

فرأيناه فى أبحاثه عن النبى صلى الله عليه وسلم يعترف له بكل معانى العبقرية والنفوق البشرى، سوى النبوة.

قال: «إن محمدا كان واحدا من أولئك الأفذاذ الخارق العادة الذين ولدوا بمواهب سامية، وكانوا يظهرون فى الأحايين على مرسح هذا الكون لأجل أن يغيروا وجهه، ولأجل أن يقطروا البشر فى جر مركباتهم».

نقول: لا بأس فيما قلته أيها الشاب الافرنسى سوى قولك: «لأجل أن يقطروا البشر فى جر مركباتهم»، فان هذا القول يشعر بأن نبينا صلى الله عليه وسلم إنما قام بدعوته ليسخر البشر فى سبيل حظوظه الدنيوية كما فعل الاسكندر ونابليون.

ولا يمكننا أن نطيل الكلام فى الرد عليك لأن مقام الخطابة لك، كما لا يمكننا أن نسكت عنك لئلا ينسب العجز الينا، ولهذا نكتفى بقولنا: إن سيدنا الرسول لو كان يريد ان يكون كالقياصرة والأكاسرة لعاش عيشهم، ولبذخ فى الحياة بذخهم، ولخص ذريته بخلافته من بعده مثلهم. ولو فعل لحقت كلمة الاحتجاج عليه.

أما جعله الخلافة فى قومه (قريش) فلأن القرآن عربى، والشريعة — كما قال صاحب كتاب الموافقات — عربية، ولا يفهمها حق الفهم، إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم.

ثم قال العلامة المستشرق:

«إذا تأمل الانسان فى الوسط الاجتماعى الذى نشأ فيه محمد، وفى قمة العظمة التى بلغها، تعجب مما تستطيع العبقرية البشرية أن تفعله إذا ساعدتها الظروف».

لم يخطىء خطيبنا الشاب فى وصف عبقريته صلى الله عليه وسلم ، لكننا نقول : إنها عبقرية نبوة ، لا عبقرية فتوة ، وساعدتها الظروف ، لكنها ظروف سماوية ، لا ظروف اتفاقية .

قال خطيبنا العلامة :

« ولد محمد وثنيا ، وارتقى الى معرفة إله واحد » .

نقول : لو قلت أيها المستشرق الفاضل : « ولد فى قوم وثنيين » لكنت أحسنت ، لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، حتى فى زمن طفولته ، فقد روى علماء السيرة ، أنه لما اجتمع ببحيرا الراهب ـ وكان صبيا ـ استحلفه بحيرا باللات والعزى على شىء ، فقال له النبى : « لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ! » .

وقولك « إن محمدا ارتقى الى معرفة إله واحد » كلام حق ، فان التوحيد مركوز فى طبعه منذ ولد ، ثم تأيد هذا التوحيد الفطرى بالوحى الالهى .

قال باحثنا المستشرق :

« وبعد أن هتك محمد حجاب الوثنية فكر فى أن يحدث لقومه دينا جديدا » .

نقول : قولك «يحدث دينا جديدا» المحدث هو الله تعالى . أما تفكيره صلى الله عليه وسلم فى أن يكون لقومه دين جديد فلم تبتعد فيه عن الحقيقة ، لأن نبينا كان يتطلب لقومه منذ صبوته دينا غير الوثنية . فقولك «إنه يفكر» ربما كان فيه إشارة الى آية « ووجدك ضالا فهدى » ، فان بعض حذاق المفسرين فسر ضلال النبى بمعنى تردده فى أية الطرق يسلك الى هداية العرب ، وإنقاذهم من الشرك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم فى حيرة من أمرهم ، وتفكير شديد فى إنقاذهم من شقائهم ، حتى أراه الله الطريق الى هدايتهم : بأن أوحى إليه دين الاسلام .

قال العلامة : « تعلم محمد بواسطة أسفاره ، ورأى النصارى منقسمين الى طوائف ، كل طائفة تكفر الأخرى ، واليهود هول الأمم L'horreur des nations يدافعون عن شريعة موسى بعناد ، وقبائل العرب غائصين فى ظلمات الوثنية » .

نقول : إذا كنت تريد أيها العلامة ان محمدا ازداد فى أسفاره علما بما كانت عليه الأمم فى عهده من ضلال وشقاء ونزاع وتعصب ، وأن علمه هذا حصل بتدبير الله كى تستعد نفسه الشريفة لتلقى الوحى والنبوة ، كان قولك حسنا . أما إذا أردت بتعلمه فى الأسفار أنه تعلم علوما لاهوتية استعان بها على دعوى النبوة ، كان قولك باطلا ، لأن سيدنا الرسول نشأ أميا والأمية عائق كبير عن طلب العلم وتتبع مسائله وتقييد شوارده ، وكانت أميته هذه حجة على المشركين فى صحة نبوته ، ولم يسمع منهم قط احتجاج عليه بالقراءة والكتابة ، كما لم يسمع منهم أنهم قالوا له : إنك تعلمت وتلقنت فى أسفارك علوما لاهوتية ، ولو علموا ذلك لاحتجوا

عليه به ، ولنقل الينا ، وكل ماعامه قومه أنه لأول مرة سافر الى الشام مع عمه أبي طالب ، وكان يؤمئذ صبيا ، حتى إنه تعلق بزمام ناقة عمه ، وقال له : « ياعم ! الى من تكلنى وأنا لا أب لى ولا أم » وفى عبارته هذه عبقة من الطفولة المقدسة .

ثم سافر صلى الله عليه وسلم فى شبابه الى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد ، فساوم وباع وربح وعاد ، وكان يهمه فى سفرته هـذه أن يرضى السيدة خديجة بحسن تصريف البضاعة ، ووفرة أرباحها ، فلا يمكن أن يشغل نفسه بمزاولة العلم والتعلم فلا تعود ترسله مرة ثانية فى تجارتها ، وكان هو وعمه أبوطالب حريصين على إرضائها ، كما يفهم ذلك مما قاله علماء السيرة عند كلامهم على أسباب هذه السفرة .

على أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان فطنا ذكيا ، موحدا بفطرته ، محبا للخير والحق والعدل بطبيعته ، فلا يضر إذا قلنا إنه كان يرى فى سفره من الشر ما ينافى طبعه فيأنف منه وينكره ، كما يرى من الخير مايلائم طبعه فيرتاح اليه ويقره ، فيكون علمه فى سفره علم تحقيق وتطبيق ، لا علم استفادة وتحصيل .

قال خطيبنا الافرنسى :

« وقـد أثر فى نفس محمد ما شهده من أحـوال الأمم ، فانسحب الى عزلته (فى غار حراء) وهيأ فى نفسه فى مـدة خمس عشرة سنة طريقة فى الدين يمكنه بها أن يجمع بين المسيحيين واليهود والوثنيين » .

نقول : قولك « هيأ فى نفسه » : المهيئ والمرشد هو الله تعالى . أما قولك : أثر فى نفسه ماشهده من أحوال الأمم ، فحسن جـدا ، إذ أنه صلى الله عليه وسلم كان يشق عليه مايراه من ضلالهم وشقائهم . فقولك هذا ينبغى أن نجعله تفسيرا لقولك الأول « إن محمداً تعلم فى أسفاره » ، فلا يكون معنى تعلمه إلا أنه استفاد علماً جديداً بشقاء الأمم ، وحاجتها الى نبى ينقذها من ضلالها .

ثم قال العلامة :

« هذا المشروع الدينى الذى فكر فيه محمد كان واسع النطاق ، غير ممكن التنفيذ ، فرأى أن الممكن إحداث عقيدة بسيطة ، يقبلها العقل ، وتناسب جميع أمم الأرض ، وهذه العقيدة هى الايمان باله واحد ، يعاقب على الرذيلة ، ويكافئ على الفضيلة » .

نقول : ما أحسن ما قلت أيها الشاب الافرنسى الحر ! حقاً إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم تدرج فى عرض تعاليم دينه على مشركى العرب : فـكان يأتيهم أولا بالتعاليم السهلة ، ثم بما يحتاج الى دقة وتأمل . لـكن عبارتك تفيد أنه فعـل ذلك من عند نفسه ، وهو إنما تلقاه بوحى من الله ، كما كان يتلقى ذلك إخوانه الأنبياء السابقون .

قال المستشرق :

« غير أن محمداً لما رأى أن الناس لا يتبعون دينه ما لم يكن هو نبيا مرسلا من الله ، أضاف كلمة « محمد رسول الله » الى كلمة « لا إله إلا الله » .

نقول : مادمت أيها العلامة غير مسلم فلا يمكننا أن ننازعك فى قولك نزاعاً ثقيلا . وكل ما يمكننا ، أن نعاتبك عليه عتابا جميلا .

نراك تؤمن بأنبياء التوراة ، مع أن الواحد من هؤلاء الأنبياء قد لا يؤثر عنه من أعمال النبوة وتعاليمها سوى قوله مثلا : « إن الرب أمرنى أن أقول لملك إسرائيل أن يفعل كذا ويترك كذا » . هذا كل آيات نبوته التى تجعلك تؤمن به ، ولا تؤمن بمحمد الذى أتى بتعاليم وشرائع وآداب وقوانين اجتماعية ، ظهر أثرها فى إصلاح البشر . ومهدت بين أيديهم سبل الحضارة والعمران ، وأوجدت لهم ثقافة راقية فى كل ناحية من نواحى الحياة . وقد دونت ثقافته هذه وشرحت فى ألوف وألوف من الكتب التى لو نفضت لسكان فى نفاضتها من المراشد والمنافع ما هو أجدى على البشر من كثير مما فى الكتب الأخرى . وقد تبع محمداً ملايين وملايين من البشر يعملون بشرائعه ، وفيهم ألوف وألوف من العلماء والصوفية والفلاسفة والساسة وقواد الحروب ، ورجال الفنون ، وأساطين الفقه والتشريع والأدب والشعر ، والمصنفين فى كل فن ومطلب من مطالب الحياة ، وكلهم يعترفون بأنهم إنما استقوا علومهم من ذلك الينبوع الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

فالرجل الذى انبثقت من روحانيته روحانية الحسن البصرى والجنيد والشبلى والسرى السقطى وابن عربى وابن الفارض .

الرجل الذى انبثق من علمه علم الصحابة والتابعين وعلم أبى حنيفة والشافعى والأشعرى والغزالى وابن رشد والفارابى والرازى .

الرجل الذى انبثقت من عبقريته عبقرية الخليل بن أحمد والزمخشرى وأبى العلاء المعرى والجاحظ وابن خلدون .

الرجل الذى انبثقت من فتوته فتوة الامام على ، وخالد بن الوليد ، وصقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وموسى بن نصير فاتح المغرب ، وقتيبة بن مسلم فاتح المشرق ، والمهلب بن أبى صفرة ، وصلاح الدين الأيوبى .

الرجل الذى أثمر وأنتج كل هذا تبخل عليه بكلمة « نبى » أيها الشاب الحر المنصف وتجود بها على أولئك الذين تعرفهم ويعرفهم التاريخ ؟ !

هذا ما أحببنا أن نعاتب صاحبنا عليه . ونعود الآن الى استماع بقية حديثه فى السيرة .

فنسمعه يقول :

« وبعد أن وضع محمد أساس طريقته الدينية على هذه الصورة أخذ من تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية ما علم أنه أكثر موافقة للعرب سكان البلاد الحارة .

« أما العرب فلم يكن محمد غافلا عن إدخالهم فى مشروعه ، كيف وهو إنما كان يعمل من أول الأمر لأجلهم ؟

« فأخذ يذكرهم بذكرى عزيزة عليهم : تلك الذكرى هى أبوة إبراهيم وإسماعيل ، وبذلك جعلهم ينظرون الى الدين الاسلامى كأنه دين هذين القديسين » .

نقول : عاد مستشرقنا الى نغمته السابقة ، فزعم أن كل ما كان يفعله نبينا صلى الله عليه وسلم صادر من عند نفسه ، وليس الأمر كما زعم ، وإنما هو وحى يوحى ، لما قامت عليه البراهين من صدقه صلى الله عليه وسلم فى رسالته .

ثم وصف العلامة الافرنسى ما أوتى نبينا صلى الله عليه وسلم من فصاحة وبلاغة فى لغته العربية ، فقال :

« وكان محمد واقفاً على أسرار بلاغة لغته ، تلك اللغة التى هى أغزر مادة وألذ فى السمع من جميع لغات الأرض . تلك اللغة التى بواسطة تأليف مقاطعها يمكنها أن تتابع الفكر مهما حلق فى جو الخيال ، فتصوره أكمل تصوير . تلك اللغة التى بواسطة تناسب نغماتها تسمعك تارة زئير الأسود ، وطوراً هدير الأمواج ، ومرة قصف الرعود ، وأحيانا هبوب النسمات . تلك اللغة التى وجدت من يوم أن خلق الله البشر « depuis le commencement du monde » والتى هذبها وحسن ديباجتها الكثيرون من شعراء الجاهلية . بهذه اللغة كان يخطب محمد قومه ، فكان يعطى حكمه جميع صنوف التأثير السحرى ، ويعطى تعاليمه الروعة التى تناسبها ، ويعطى الأمثال المتداولة بين أهل زمانه مسحة من الجمال جملتها ذات قيمة غير قيمتها الأولى » .

نقول : هذا ما وصف به المستشرق لغتنا العربية ، وما هى عليه من قوة التأثير فى النفوس ، وصلاحيتها لتقييد أوابد الأفكار ، فلنحرص عليها .

ثم قال العلامة :

« ولما حان الوقت لاظهار الدعوة استعان محمد على أمره بالكتمان الشديد ، فدعا أولا أهل بيته وخادمه الأمين (أم أيمن) ، وأثر بفصاحته على بعض سادات مكة فآمنوا به ، ولما شعر بقوته رفع صوته ضد الوثنية ، وما كانت النكبات التى تنزل به ولا التغريب عن وطنه ، ولا الحكم عليه بالموت إلا لتزيد فى شجاعته ، وإلهاب همته ، وفى آخر الأمر هيأ لنفسه بواسطة مستشاريه السريين ملجأ فى بلاط ملك الحبشة لينحاز اليه حين الحاجة ، ثم ملجأ آخر فى مدينة يثرب ، حتى إذا أحكم التدبيرين ، واستوثق من الملجأين ، ظهر فى رائعة النهار ، وأعلن مقاصده فى طلب المجد والفخار » .

لا بأس فى هـذا الـكلام الذى قاله خطيبنا المستشرق لو لم ينسب التدابير فى نشر الدعوة الى النبى نفسه ، وأن له من وراء ذلك غرضا خاصا به . وقد تقدم ردنا عليه فى أمثال ذلك ، فلنكتف بما تقدم .

ثم قال المستشرق :

« قاومه النصارى وقالوا فيه ما قالوا ، وأنكره اليهود مستبعدين أن يـكون رجل عادى من أهل مكة هو المسيح المنتظر . أما مشركو العرب فقـد رأوا أن دينهم الوثنى الذى هو أساس سطوتهم قد زعزعه محمد وعرضه للزوال ، ففكروا فى قتله ، ووضعوا رأسه فى المزاد ، ومع هذا فان ضجيج هـذه الطوائف الثلاث وأحقادهم وتسابقهم فى مقاومة محمـد ما كانت لتخيفه . وقد كان ثباته فوق كل النكبات ، وعبقريته خلقت مستعدة لتذليل كل العقبات . ولما استولى على المدينة سلحها ضد مكة ، وصمم على أن يقهر بقـوة السيف والسنان أولئك المكابرين الذين لم تفلح فيهم قـوة الحجة والبرهان . كما أنه لما يئس من اجتذاب اليهود والنصارى الى دينه نسخ الشرائع الناظرة الى مصلحتهم ، وعول فى تأييد دعوته على العرب وحدهم فـكان أول ما فعله من هـذا القبيل تحويل القبلة الى مكة بعـد أن كانت الى بيت المقدس ، فقوبل هذا التشريع من العرب بالتكبير والتهليل ، وعدوه نعمة سماوية ، أما الشارع فـكان يرى فى هذا التحويل وسيلة الى حمل صحابته على فتح مكة منبت أسلته ، وهدف رغبته .

« وبعد تحويل القبلة الى مكة وجه همته الى أمر أهم : هو توحيد كلمة القبائل المتعادية ، فأنشأ نظام التآخى ، الذى بواسطته أصبح المسلمون أسرة واحدة يتسابق أفرادها الى إعلاء شأن رئيسها

« ولما تم له كل هذا صمد الى أعدائه ، فـكافحهم بتلك الشجاعة النادرة التى اكتسبها فى الحروب تحت إشراف عمه أبى طالب ، فأهلته لأن يكون قائدا حربيا كبيرا . ووصية محمد لرجاله بالظفر أو الموت ، وثقتهم بمعونة الله الموعودة ، وأملهم بالغنائم التى كانت تقسم بينهم بالعـدل ، كل ذلك ألهب نفوسهم بالبسالة ، وجعل انكسارهم من رابع المستحيلات

« حارب العرب كلهم ، بأهل المدينة وحـدهم ، فـكان استبساله فى الهجوم ، واختياره المراكز المنيعة لنزول جيشه ، وإضرامه نار الحمية فى نفوس أبطاله ، كل هذا جعله يتفوق على أعدائه : فـكنت تراه فى وسط الحروب الموقـدة ، وبين خفقان القـلوب الملتهبة ، بارد القلب ، مطمئن النفس ، واثقا بالنصر

« وكان دقيق النظر فى مراقبة حركات أعـدائه وسكناتهم ، حتى إذا بدرت منهم هفوة اغتنمها حالا ، وعززها بخدعة حربية ، فيكون النجاح ، ويكون الظفر

« ويوم « أحد » هو اليوم الوحيد الذى خانه فيه الحظ ، ومع هذا فقد عرف يومئذ مبلغ ما لمحمد من السلطة على العقول ، وما لعبقريته من المقـدرة على استعمال الخدع والمكايد . وكان من أثر ذلك أن المشركين — مع كونهم غالبين — جبنوا عن الاستفادة من غلبتهم ، وأن صحابة محمد المغلوبين بقوا متمسكين به ، ولم ينفصل واحد منهم عنه » .

هذا الـكلام من خطيبنا الشاب الافرنسى حسن ، لـكنه مبنى على رأيه فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو نفسه مصدر كل هذه التدابير الحربيـة . أما نحن معشر المسلمين فنعتقد أن الله الذى أرسله هو الذى كان يوحى اليه بها .

على أننا لا ننكر أن له ، صلى الله عليه وسلم ، مع صحابته أحيانا تدابير شخصية ترجع الى الاجتهاد وإعمال الرأى وتلمس الخدع الحربيـة وفقا لآية « وأمرهم شورى بينهم » ، وعملا بالحديث المأثور « الحرب خدعة » .

قال خطيبنا الافرنسى :

« أخضع محمد اليهود وجمهرة القبائل العربية ، وفتح مكة . وكان يعلل نفسه بالاستيلاء على الملوك المجاورين ، وأن يراهم مؤمنين به . وكان يهيىء الوسائل لهذا الغرض . من ذلك أنه أرسل اليهم رسلا يدعوهم الى الاسلام ، فان أسلموا وإلا اتخذ من عنادهم عذراً الى مهاجمتهم . وكان عميـق النظر جداً فى معرفة القـلوب البشرية ، فـكان عماله وقواده من عظماء الرجال . وكان طموحه الى المعالى يجعله يحـول نظراته الى « سورية » من وقت الى آخر ، ويذكرها بشوق وارتياح ، فاتفق للروم يوما أن حملتهم سفالتهم على قتل رسول أرسله محمد اليهم ، وكانوا معه فى قلب السلم » .

أقول : وهـذا الرسول اسمه « الحـارث بن عمير الأزدى » كان صـلى الله عليه وسلم أرسله الى أمير « بصرى » فى حوران من بلادنا الشامية ، فقتله الأمير . وبسببه نشبت بين الروم والصحابة حرب « مؤتة » . وكان المسلمون ثلاثة آلاف ، والروم أكثر منهم بأضعاف . وقد قتل فى هذه الوقعة أمراء النبى الثلاثة ، على هذا الترتيب الذى رتبهم به : « زيد بن حارثة » ثم « جعفر بن أبى طالب » ثم « عبد الله بن رواحة » حتى أخذ الراية سيف الله « خالد بن الوليد » فبطش بالروم بطشة كبرى . وقد لخص لنا خبر هذه الوقعة خطيبنا الافرنسى .

فقال :

« قطع خالد بن الوليد رمال جزيرة العرب المحرقة حتى بلغ أرض الروم ، ونال هذا القائد الباسل انتصارا عليهم كان من أعجب الانتصارات التى خـلدت ذكـره فى تواريخ الأجيـال . وهـكذا كان دم عدة آلاف من الروم كافيا للانتقام من سفالتهم ، ولم يكن طمعا فى غنائمهم . ومن ذلك الحين عزم محمد على انتزاع سورية من يد هرقل . وبعد قليل من الزمن رأيناه يمشى

اليها على رأس ثلاثين ألف محارب ، وكان قبل ثمان سنوات ، فى وقعة بدر ، لم يمكنه أن يجمع تحت رايته أكثر من ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا . فاجتاز الصحارى والرمال المحرقة كالبرق الخاطف ، وعسكر فى « تبوك » ومن تلال رمالها أشرف على سورية . وقد كفاه عشرون يوما لاخضاع جميع البلاد التى فى طريقه . ولما لم يسلموا وضع عليهم الجزية ، ورجع الى عاصمته منقلا بالغنائم ، مجللا بالفخار . ثم فى ثالث مرة جهز محمد لفتح « سورية » جيشا عرمرما يبلغ أربعين ألف مقاتل . غير أن المنية اعترضت سبيله ، وحالت بينه وبين المسير إليها ، فتجلببت المدينة بأثواب الحداد على فقده ، وشملت سكانها كآبة لا توصف ، مما برهن على مقدار ما كان لمحمد من التسلط على العقول » .

عبد القادر المغربى
عضو مجمع اللغة العربية الملكى

تناسب الاصحاب

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « الصاحب مناسب » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « ما من شىء أدل على شىء ولا الدخان على النار من صاحب على صاحب » .

وقال بعض الحكماء : « اعرف أخاك بأخيه قبلك » .

وقال بعض الأدباء : « يظن بالمرء ما يظن بقرينه » .

وقال عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

قال الامام الماوردى عقب هذا الكلام : « فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء السوء ، ويجانب أهل الريب ، ليكون موفور العرض ، سليم العيب ، فلا يلام بملامة غيره . وهذا قبل التثبت والارتياء ، ومداومة الاختبار والابتلاء ، متعذر بل مفقود . وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره ، وخبث باطنه ، فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... وإن كان لون الماء أبيض صافيا



الاخلاص (١)

ذكرنا لك فى مقالنا السابق نص حديث أبى أسامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاخلاص، وبينا بعض ما يتعلق به من فضيلة الاخلاص وحقيقته وحكمة مشروعيته . وبقى الكلام فى شرح ما يقتضيه ظاهر ذلك الحديث من حبوط أجر العامل غير المخلص ، والسكوت عن تأثيمه . وهذا هو موضوع كلامنا الآن .

إن الحديث وإن لم يكن فيه تصريح بنفى الاثم عن الذى جاهد فى سبيل الله يبتغى الثواب من عند الله والشهرة بين الناس ، ولكن نفى الاثم مفهوم من المقام حتما ، لأن السائل قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أمر دينى محض وهو معرفة ما يترتب على هذا العمل من خير أو شر فى نظر الدين ، فلو كان الرجل آثما لقال له صلى الله عليه وسلم : بل هو مازور لا ماجور . وظاهر أن السائل كان جازما بنفى الاثم وإنما هو متردد فى أجر العمل وثوابه ، فاقره صلى الله عليه وسلم على سؤاله ، وأجابه بحبوط الأجر . وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الحديث يفيد أن الذى يبنى عمله على سببين أحدهما دينى والآخر دنيوى يحبط عمله فقط بدون أن يكون عليه إثم ، فلا له ولا عليه .

ولكن هذا قد ينافى أصلا من أصول الدين القيمة ، وهو أن الله سبحانه لا يضيع مثقال حبة من عمل الصالحات الصادرة عن المؤمنين ، قال تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» . وقال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . وذلك لأن الجهاد عمل بر صدر عن مؤمن ، وكونه مبنيا على سببين أحدهما دنيوى لا ينفى عنه الخيرية رأسا بحيث لم يبق فيه مثقال ذرة من الخير . وإذا كان كذلك فكيف ينفى الحديث أجر ذلك العمل نفيا باتا ؟ ويمكن أن يجاب عن هذا من أول الأمر بأن مصدر وصف الأعمال بالخير والشر إنما هو المشرع ، فهو الذى يحكم بأن هذا الفعل فيه مثقال ذرة من الخير أو لا . فلا منافاة

---

(١) تابع لما نشر بهذا العنوان فى العدد السابق .

بين الآية الكريمة وبين الحديث أصلا ، لأنه متى ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صرح بأن العمل المبنى على سببين أحدهما دنيوى ، لا ثواب فيه ، فانه لا يكون فيه مثقال ذرة من الخير قطعا . ولكن الامام الغزالى قد فصل فى الجواب عن مثل هذا تفصيلا حسنا فقال ما ملخصه :

إن أعمال البر التى قد امتزج بها شىء من حظوظ النفس بأن عملت لغرض دينى وغرض شهوى ، فانها لا تخلو عن أحد أمرين : الأمر الأول : أن يكون السببان الباعثان على العمل متساويين بحيث لا يرجح أحدهما عن الآخر عند العامل . الثانى أن يرجح أحد السببين ويضعف الآخر . فان تساويا تساقطا وضاع الأجر وأصبح العامل لا له ولا عليه . وإن رجح السبب الدينى بحيث كان هو الباعث الأصلى على العمل والسبب الآخر جاء تبعا بحيث لو انعدم لا يترتب على انعدامه انقطاع العمل ، فان الثواب لا يحبط ، ولكنه ينقص بقدر رغبة العامل فى الحصول على ذلك السبب الضعيف . أما إذا رجح السبب الدنيوى بحيث إذا لم يوجد كف العامل عن العمل ، فان فى ذلك حبوط أجر العمل وإثم العامل ، لأنه جعل عبادة الله وسيلة للحصول على لذة ، فاذا كانت تلك اللذة محرمة كانت جنايته أشد وإثمه عظيما . وأكبر من هذا جرما من يعمل عملا دينيا لمحض الشهوة بدون أن يلاحظ أمر الله مطلقا ، لأنه فى هذه الحالة إنما يعمل لهواه ولذته ، مع اتخاذ عبادة الله سلما يتوصل بها الى الحصول على لذته ، فهو فى الواقع من شر الجناة المنافقين الذين يعملون على عكس قواعد الدين الذى جاء بالتوحيد الخالص ومحو عبادة الأوثان .

هذا إيضاح ماذكره الامام الغزالى ضمن كلام طويل . ولا ريب أن الحديث الذى معنا ينطبق عليه الأمر الأول وهو تساوى السببين ، لأن السائل ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم السببين على السواء : الأجر من الله ، والشهرة عند الناس ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بنفى الأجر فقط . ويمكننا أن نحمل جميع الأحاديث المماثلة لهذا على هذا المعنى .

ويؤيد هذا التفصيل الذى ذكرنا أن قواعد الدين الاسلامى تقتضى الترغيب فى أعمال البر وتعظيم أجر العاملين ، حتى ورد فى الصحيح أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فان هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة. وهذا الترغيب يستلزم أن لا يحرم العامل من أجر عمل قام به . فان كانت فيه جهة نقص فانه ينقص من ثوابه بقدرها . نعم إذا كان الباعث له على هذا العمل مجرد الشهوة ، أو كان الباعث الدينى ضعيفا لا يترتب عليه استمرار العمل ، أو كان الباعث الدنيوى مساويا للباعث الدينى بحيث يتوقف عليه العمل ، فان العامل فى هذه الحالة لا يستحق أجره من الله ، لأنه فى الواقع لم يعمل لله . ومن سوء الأدب أن يعمل الانسان لتحصيل شهوة ثم يطلب أجرها من الله . والى هذا يشير الحديث الصحيح ، وهو : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فان الله أغنى الشركاء عن الشرك ».

فهذا الحديث يقول لمن انبعث الى عمل البر بباعث أشركه مع خالقه : إنه لاحق له فى طلب الأجر من الله تعالى ، لأنه لم يعمل له على التحقيق ، وهو سبحانه غنى عن عمله الذى يعمله له مع الشريك ، بل هو غنى عن العالمين جميعا .

وربما يتوهم بعضهم أن هذا الحديث يدل على أن الشرك يحبط أجر العمل مطلقا ، سواء أكان قويا أم ضعيفا ، لأنه عام يتناول كل شرك ، ولكن الواقع أن الشركة التى يترتب عليها أخذ الأجر من الشريك لا تتحقق فى نظر الدين الذى جاء بالعدل المطلق إلا إذا كان العمل موقوفا على الشريكين بنسبة واحدة ، أما إذا كان أحد الشريكين ضعيفا لا يتوقف على انعدامه الشروع فى العمل أو الاستمرار فيه ، فليس من العدل أن يقال للعامل : خذ أجرك من هذا الشريك ، وإنما الذى يصح أن يقال له : لماذا لم تجعل العمل مقصورا على الغنى المطلق لتأخذ عليه أجرك كاملا ؟ ومن أجل هذا قلنا إن السبب الدينى إذا كان قويا بحيث لو انعدم السبب الآخر لا ينقطع العامل عن عمله بل يمضى فيه حتى ولو تألمت نفسه لعدم حصول السبب الضعيف ، فان الثواب لا يحبط ولا ينقص أجره بنسبة ذلك التألم وانقباض النفس على ضياع السبب الضعيف . أما إذا كان السبب الدينى ضعيفا فان الثواب يحبط ويأثم العامل ، لأن السبب فى هذه الحالة ينزل منزلة العدم .

وفى قوله : « فان الله أغنى الشريكين عن الشرك » توبيخ لمن يشرك مع الله غيره فى أعمال البر ، لأن العامل الذى يطلب الجزاء الحسن على عمله لا يكون عاقلا إذا ترك الغنى المطلق الذى لا يحتاج الى معونة الشريك فى منح الأجر ، وعمل للمحتاج الذى لا يعطى الأجر إلا بنسبة محدودة وقدر معين .

ولا يخفى أن هذا التفصيل الذى بيناه إنما هو فى أعمال الجوارح : من جهاد وحج وصوم وصلاة ونحو ذلك ، وتسمى عملية . ولكن بقى من أعمال البر أعمال اللسان وتسمى قولية ، وأعمال القلب وتسمى اعتقادية ، فهل ينطبق هذا البيان عليها أولا ؟ والجواب أن عمل اللسان كعمل الجوارح من كل وجه ، فتارة يكون مبنيا على سبب واحد ، وتارة يكون مبنيا على سببين ، فيجب على كل متكلم أن يبنى كلامه على سبب واحد صحيح وهو مرضاة الله تعالى . فاذا بنى قوله الدينى على غرض دنيوى محض فانه يكون آثما لا محالة . مثال ذلك أن يتلو شخص القرآن أو ينطق بالذكر بحضرة من يحب الصالحين ليؤثر عليه بذلك فينال منه منصبا أو مالا أو جاها أو ليقال عنه إن الرجل لا ينفك لسانه عن الذكر وتلاوة القرآن ، ولولا ذلك ماقرأ ولا ذكر ، فهذه الحالة توجب الاثم ، لأن هذا نفاق فى أعمال البر يستحق عليه فاعله سوء العقاب . ومثل ذلك ما إذا نطق بكلمة حق يريد بها باطلا ، كما إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله ليغرى بها ذا سلطان على الوقيعة بمتهم برئ ، فانه يأثم بذلك إثما مبينا .

فاذا بنى الانسان عبادته القولية على سببين أحدهما دنيوى كان فيه التفصيل الذى ذكرناه من جميع الوجوه . وكما أن الشارع قد نهى عن بناء العبادة القولية على سبب لا يقره الدين فكذلك نهى عن كل قول تبعث اليه الشهوة والهوى . فحرام على كل مؤمن ومؤمنة أن يتكلم بما لا يرضى الله تعالى : كأن يمدح ظالما لا يستحق المدح للحصول على غرض دنيوى ، أو يذم شخصا لا يستحق الذم تشفيا وانتقاما ، أو يقول زورا من القول ليقتطع به حقا ، أو ينال به من عرض برئ أو نحو ذلك . ومن يفعل ذلك فانه يكون من المجرمين الذين لهم سوء العذاب .

وأما أعمال القلب وهى الاعتقاد فانه لا يتصور بناؤها على سبب مؤقت ، إذ لا يعقل أن يعتقد الانسان أن الله موجود ليظفر بمال أوجاه حتى إذا ما ظفر بذلك زال اعتقاده ، وإنما الذى يتصور فى ذلك أن يظهر ذلك الاعتقاد كذبا كما كان يفعل المنافقون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا يظهرون الايمان بالله ورسوله ليظفروا بالغنيمة أو ينجوا من بطش المؤمنين ، أو يحاولوا إغرار ضعاف الارادة ليردوهم عن دينهم ، أو نحو ذلك من البواعث الفاسدة والشهوات المذمومة . وذلك هو الرياء فى العقيدة ، وهو من أقبح أنواع الرياء ، بل هو عند الله أكبر من المجاهرة باعتقاد إلهين أحدهما يقرب الى الله زلفى ، أو يقوم بمهمة يستحق عليها العبادة كما كان يفعل المشركون المجاهرون . وذلك لأن النفاق فى العقيدة جناية عظمى على المجتمع الانسانى ، فانه أمضى سلاح يستعين به الشرير خبيث النفس فاسد العقيدة على قضاء لبانته ، ولولا أن الله سبحانه كان يوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما كان يضمره هؤلاء المنافقون من الشر لكان أثرهم فى محاربة الاسلام والمسلمين يومئذ عظيما ، لأن اختلاطهم بالمؤمنين مكنهم من الاطلاع على مواطن الضعف منهم والكيد لهم وهم غافلون . وها نحن أولاء نرى آثار المنافقين الضارة بالجماعات والأفراد فى كل زمان ومكان ، فكم من منافق تمكن باظهار العقيدة التى يحبها صاحب السلطان كذبا من التنكيل بالأبرياء والقضاء على الحق والعدل ، وكم من منافق أظهر إيمانه للناس فتمكن من الاساءة اليهم فى أغراضهم وأموالهم وهم لا يشعرون .

ثم إن العقيدة تارة تكون متعلقة بالله تعالى ورسله ونحو ذلك من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة ، وتارة تكون متعلقة بغير ذلك ، فان كانت متعلقة بالله تعالى فانه يجب أن تبنى على سبب واحد وهو كونه تعالى موجدا للانسان ، وموجدا للوسائل التى بها يبقى فى الحياة الدنيا بقاء مؤقتا ، وفى الآخرة بقاء دائما مستمرا . فالاعتقاد فى أن الله إله واحد واجب الوجود متصف بجميع صفات الكمال لا يصح بناؤه إلا على ما ثبت بالدليل القاطع الذى لا ريب فيه من أنه وحده خالق الانسان وخالق الوسائل التى بها يبقى من سماء وأرض وشمس وقمر وماء وهواء وسائر أجزاء العالم ، فلا يستحق العبادة إلا من كان هذا شأنه ، وقد انحصر ذلك فى الله

وحده . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى توبيخا للمشركين « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » وقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » وقوله : « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » الى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن الذى يستحق أن يكون إلها معبودا إنما هو الخالق الرازق دون سواه . فمن يشرك مع الله فى العقيدة إلها آخر لسبب غير الخلق والرزق فهو جاهل بمقام الألوهية ، ولا يليق بالانسان العاقل أن يعبد من لا يخلق أو من يشرك معه إلها آخر يخلق ويرزق ، فهو أشد جهالة من الأول ، لأن الشركة على هذا الوجه تحد من سلطة كل منهما فلا يصلح أن يكون إلها لأن كلا منهما فى هذه الحالة يكون عاجزا عما تعلقت به قدرة غيره ، والاله يجب أن يكون كامل السلطة . وهذا السبب وهو الخلق والرزق دائم مستمر أقره الدين ، فيجب بناء العقيدة فى الله عليه . وإن كانت العقيدة متعلقة بالرسل فانه يجب أن تبنى على السبب الذى أثبتوا به رسالتهم من البراهين القاطعة ، فلا يصح أن يظهر أحد اعتقاده فى الرسول كذبا ليظفر بغرض دنيوى كما كان يفعل المنافقون ، ومن أظهر اعتقاده فى الله ورسله أو فى أصل من الأصول الدينية كذبا للوصول الى غرض من الأغراض فانه يكون كافرا بالله ورسوله ، ومأواه الدرك الأسفل من النار .

أما إذا كان الاعتقاد متعلقا بغير الأصول الدينية فان له جهتين : إحداهما الكلام فى جواز أصل الاعتقاد . ثانيتهما الكلام فى الاخلاص فيه ، فأما الأول فانه لا يحل لمكلف أن يعتقد فى أمر من الأمور إلا إذا أقره الدين على ذلك ، فيحرم أن يعتقد فى شخص مرتكب لجريمة الزنا أو مدمن على شرب الخمر أو تارك للصلاة أنه ولى من أولياء الله بناء على أنه قال له كلمة صادفت الواقع أو عمل أمامه أمرا غير عادى فى نظره ، لأن الدين الاسلامى لم يجعل هذه الأمور سببا للولاية ، بل جعل سبب الولاية الايمان والتقوى وهى اجتناب ما نهى الله عنه وعمل ما أمر به ، وذلك يستلزم بالضرورة تعلم العلم الدينى الذى يشتمل على الأوامر والنواهى . فالولى فى نظر الدين هو المؤمن العالم التقى لاغير ، قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى » . فمن يعتقد الولاية فى المجاهرين بالفسق أو الجهلة الذين لا يعرفون الدين والايمان فانه يكون آثما بهذه العقيدة لأنه مخالف لقواعد دينه . وأما الثانى فانه إذا اعتقد فى العالم التقى الولاية وجب عليه أن يبنى اعتقاده على سبب واحد وهو مرضاة الله تعالى الذى أمر باحترام المؤمنين الأتقياء ومحبتهم . أما إذا اعتقد فيه الولاية لغرض آخر غير مشروع كأن يشفى له مريضا أو يقضى له حاجة ليس من شأنه قضاؤها ، فانه يكون غير مخلص فى اعتقاده ، لأنه بناه على سبب غير دينى . ومثل ذلك ما إذا أحب شخصا لصفة ممدوحة فى نظر الدين كالعدل ومكارم الأخلاق والعطف على الفقراء والمساكين ونحو ذلك من الصفات التى يرضى عنها الله تعالى . فانه إذا بنى حبه وحسن اعتقاده فيه على صفة من هذه الصفات ، كان

مخلصا له ، واستحق على هذا أجرا عند الله . أما إذا بنى حبه فيه على غرض خاص مؤقت فاذا قضاه انقطعت محبته أو أظهر له المحبة وهو يبغضه ويحب إساءته فانه يكون منافقا يستحق على ذلك العقاب ، وعلى هذا القياس .

وبالجملة فانه يجب على الانسان أن يجعل أعماله كلها مبنية على الأسباب التى يقرها الشرع فى معاملة الخالق والمخلوق ، وبذلك تكون كلها خالصة لله تعالى الكفيل بجزاء العاملين المخلصين وإعطائهم ما تقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة . فاذا عزم على الاخلاص ولكن خطرت له خواطر نفسانية تنافى الاخلاص ، فعليه مقاومتها بقدر المستطاع ، فاذا عجز عن ذلك فانه يمضى فى عمله ولا حرج عليه ، لأن الله تعالى لم يكلف الانسان إلا بما فى طاقته ، قال تعالى: «وما جعل عليكم فى الدين من حرج »

وفق الله العاملين الى الاخلاص فى القول والفعل والاعتقاد ، إنه سميع الدعاء .

عبد الرحمن الجزيرى

طلب الرزق بالسفر

روى أن عقبة بن ربيعة شاور أخاه شيبة فى النجعة فقال : إنى قد أجدبت ، ومن أجدب انتجع (أى قصد الى مواطن الخصب) . أخذ هذا المعنى أبو تمام الطائى فقال :

أراد بأن يحوى الغنى وهو وادع ... ولن يفرس الليث الطلا وهو رابض

وقيل لأعشى بكر الشاعر : الى كم هذه النجعة والاغتراب ، أما ترضى بالخفض والدعة ؟ فقال : لو دامت الشمس عليكم لمللتموها .

أخذه أبو تمام فقال :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة ... الى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وقال المأمون بن الرشيد : لا شىء ألذ من سفر فى كفاية ، لأنك فى كل يوم تحل محلة لم تحلها ، وتعاشر قوما لم تعاشرهم .

أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة ... من أن تبدل أوطانا بأوطان
تلق بكل بلاد إن حللت بها ... أهلا بأهل وإخوانا بإخوان

الاسلام والفلسفة

— ١١ —

ابن رشـــد

تتمة فلسفته :

يرى ابن رشد أن المشاهد في الكون هو حركة عامة شاملة ، وأن كل حركة لا بد لها من متحرك تقوم به وتحقق فيه ، وأن كل واحد من هـذه المتحركات معلول لمحرك يؤثر فيه . وهـذا المحرك إذا اتصف بالحركة كان كذلك متحركا محتاجا الى محرك حتى تصل الى الطرف الذي يحـرك ولا يتحرك ، ويؤثر ولا يتأثر ، وهـو واجب الوجود أو عـلة العلل . وإذاً فالموجودات من حيث الاتصاف بالحركة والتنزه عنها قسمان : الأول هو واجب الوجود الذي تستحيل عليه الحركة المقتضية للتغير والصيرورة اللذين يستلزمان الانحصار والتحدد والامكان وأمثال هـذه النعوت المتعارضة مع جـلال الألوهية ولا محدوديتها . أما القسم الثاني فهو ما عدا واجب الوجود لذاته ، وهذا القسم لا بد له من الحـركة الأزلية الأبدية ، أما أزليتها فهي ضرورية لتحقق معلوليتها للباري ، وأما أبديتها فلتحقق عليتها لمعلولاتها من ناحية ولسيرها نحو الكمال ، لترضى شوقها الطبيعي من ناحية ثانية . وفوق ذلك فانه لو لم تكن الحركة أزلية وأبدية ، لا نعدم الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، لأن كل صف منها مسبوق بما هـو أساسه ومنبعه ، وسابق لما هو ناشئ منه ومتفرع عنه ، ومن السلسلة الأولى نشأ الماضي . ومن الثانية ينشأ المستقبل ، إذ الزمان نتيجة لحركات الأفلاك ، وهي ليست إلا جزء الحركة الكونية العامة . والنتيجة من كل هذا أن الكون سائر في خضوع تحت راية القانون الطبيعي الذي لا يملك أحد التغيير فيه حتى الله نفسه . ويرمى ابن رشد من وراء هذا التصريح الى غاية معينة وهي أن جميع ما يحـدث في الكون ينشأ بطريقة آلية نشوء المعلول عن علته التي متى وجـدت استحال تخلف معلولها مهما كانت الحال ، وهو لهذا ينفي القول بوجود ممكن الوجود ، ويخطئ جميع المتكلمين القائلين به . ويرمى ابن سينا حين قسم الكون الى واجب الوجـود وممكن الوجود بأنه إنما كان يسايرهم ليرضيهم ، وأن الفيلسوف لا يمكن أن يقول هذا ، لأن معلول العلة الواجبة الوجود يكون واجب الوجود حتما ، ولا يصبح ممكن الوجود إلا إذا انعدمت علته .

ويرى ابن رشد كما رأى ابن سينا من قبله ، وكما رأى أستاذهما أرسطو من قبلهما ، أن

الموجودات كلها حلقات من السلسلة العامة التى طرفها هو المحرك الأول أو علة العلل أو واجب الوجودلذاته ، وما يليه من الحلقات معلول له ، وعلة فيما بعده ، حتى تنتهى جميعها على هذا النظام.

أما بطلان نظرية خلق الله للجزئيات فهو يعلله بأنه يلزم عليه أن يكون الاله خالقا لجميع الجزئيات من غير استثناء بطريقة مباشرة ، وهذا يقتضى انعدام الأسباب كلها ، لأنه لا معنى لأن يكون لبعض المسببات أسباب ، والبعض الآخر لا أسباب له ، لأن هذا يلزم عليه ترجيح أحد المتساويات بلا مرجح ، وهو باطل . وإذا ثبت كل هذه المقدمات وجب أن نؤمن بأن الماء لايبل ، وأن النار لا تحرق ، وإنما الذى يبل ويحرق هو الله ، وأن الانسان إذا ألقى حجرا تنسب الحركة فى هذا الالقاء الى الله ، وأن الموت كذلك من فعل الله ، مع أن المشاهد عكس ذلك : فالنار تحرق ، والماء يبل ، والانسان هو خالق حركة الالقاء ، والجسم يحمل فى ذاته بطبيعته عنصر الموت .

فيثبت إذاً ، أن لكل شىء سببا مؤثرا فيما بعده ، متأثرا بما قبله ، الى أن نصل الى العلة الأولى . أما نظرية العقول عنده ، فلا تكاد تختلف عنها عند أسلافه ، غير أن كل عقل فى رأيه إيجابى بطبيعة وجوده ، أى هو يؤثر فى معلولاته تأثيرا مستقلا منقطعاً عن أية صلة أو أى اعتبار خارج عن وجوده ، وهذه نقطة خلاف أخرى بين ابن رشد وأسلافه من فلاسفة المسلمين الذين كانوا يرون — كما قدمنا — أن لكل عقل جهتين أو جهات ثلاثا على ما يختلفون فى ذلك ، كجهة اتصال العقل بالبارى ، وتعقله إياه ، وهذه تسمى الجهة العليا ، وكجهة تعقله نفسه ، وهى الجهة الدنيا . فعن العليا يصدر كائن عال مجرد وهو العقل الذى يليه ، وعن الجهة الدنيا يصدر كائن أدنى أوغير مجرد وهو الفلك المعلول له ، ولكن ابن رشد قد خالف هذا الرأى وقال بالايجابية المطلقة . وهو يرى أن أكثر هذه العقول إيجابية إنما هو العقل العاشر المؤثر فى هذه الكائنات الدنيا الأرضية ، لأنه دائم العمل . ولا ريب أن رأى الفارابى فى هذه النظرية أقرب الى تعاليم الاسلام من رأى ابن رشد ، لأن الفارابى يقول بالاستمداد من البارى ، وابن رشد يقطعه .

النفس عنده :

يتفق ابن رشد مع الفارابى فى عنايته بتقسيم النفس الى قوى مختلفة وإن كانت كلها متعاونة متكاتفة ، ويعتبر مذهبه فيها تجديدا فى الفلسفتين : اليونانية والاسلامية ، لأنه أول من قال بأن النفس أو القوة العارفة فى الانسان هى : فيض العقل العاشر الذى تجلى به على الكون المادى فاتخذه ظرفا له وحل فيه فكسبه كل ماله من قيمة ، كما سيجىء فى نظرية المعرفة عنده . أما الجنة والنار عنده كما عند ابن سينا فهما تمثيلان لأفهام عامة لا حقيقتان ، لأنه يقول مثله ببعث الأرواح فقط ، وها يملان هذا الرأى ، وهو منع البعث بالأجسام بالعلل الآتية :

(أولا) لأن الأجسام يختلط بعضها ببعض حين تتفتت وتصير ترابا ، فيتغذى به النبات ثم يأكله الانسان فينمو به ويصبح جزءا من جسمه . فالى أى الشخصين ينسب هذا الجسم الجديد ، وهو بعض من كليهما ؟

(ثانيا) إن الجسم لا يتكون إلا عن طريق طبيعي كتكونه فى المرة الأولى التى طاف فيها بأطوار مختلفة ، ونما أثناء هذه الأطوار بوساطة الأخلاط المركبة من العناصر الآربعة الآتية اليه عن طريق الأغذية ، من: طعام وشراب وهواء ، وهذا لا يتيسر فى العالم الآخر ، فالبعث إذاً للأجسام غير ممكن .

والجواب على المنع الأول هو أنه لا معنى لأن يعترف الفلاسفة لله بالقدرة التامة ثم يستبعدون عليه أن يفصل الأجزاء الآتية الى كل جسم من الخارج ، ثم يرجعها الى المصدر الذى أتت منه ، فان هذا على القادر شىء هين . على أن الشريعة نصت على بقاء قطعة من الجسم وهى عجب الذنب ، لتكون أصلا للجسم المبعوث . وهناك قول آخر بأن الجسم كله يفنى ، والله يعيده مرة أخرى ، وليس بمستعص على من أنشأ أن يعيد . أما أنا فأميل الى الرأى الأول ، لأنه أقرب الى المنطق أن يكون الجسم الذى شاهد الأعمال هو الذى يشاهد ثواب الروح أو عقابها ، ويشهد أمام الله على مارأى . وأما المنع الثانى فيجاب عنه بأنه لامانع من أن يكون لدى الله وسائل أخرى لانشاء الجسم من عدم ، أو لاعادة تكوين الجسم البالى من غير اجتماع الأخلاط وتلاقى العناصر التى يقصرون عليها قدرة الله . ومن حيث إن الزمن يرينا فى كل يوم أن عقائدنا الأولى فى قصر الأجسام على خواص معينة وفى حد الغايات بوسائل خاصة ، عقائد باطلة ، فينبغى ألا يعتمد الفلاسفة على هذا الخيال الواهى ، لاسيما وأن الله هو الذى اختار وسائل جمع الأخلاط لاعادة تكوين الجسم ، فليس يصعب عليه أن يختار لاعادة هذا التكوين وسيلة أخرى لم تدر لهؤلاء الفلاسفة بخلد .

أما الأدلة النقلية على البعث بالأجسام فلا محل فيها للشك ، ولا مجال للتأويل ، مثل قوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » . وقوله جل شأنه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . وقوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » . وقوله سبحانه : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . وقوله تبارك اسمه : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . الى غير ذلك مما هو جدير باسكات أفصح الألسنة وإخفات أقوى الأصوات ، وإخماد أنصع الحجج وأسطع البراهين . وإذا اتضح أن البعث بالأجسام ، ثبت أن الجنة والنار حقيقتان من الحقائق ، لا تمثيلان لأفهام العامة والجماهير كما رأى أولئك الفلاسفة .

والآن بقى أن نقول لهم جميعا : إنكم حين ترمون القرآن بانه لا يقصد الحقيقه وإنما يقصد التمثيل لأفهام العامة الذين لا يدركون المعانى العالية إلا إذا صورت لهم بصورة مادية، تتهمونه بالتمويه والاغراء . ومهما تاولتم فى أحكامكم على القرآن وأتيتم بالبراهين السوفسطائية المؤيدة لهذا التأويل ، فلن يحمل كلامكم على غير الاتهام بالتمويه . وهذا هو سر اتهام الامام الغزالى الأولين منكم بالكفر والمروق عن الدين .

نظرية المعرفة عنده :

بسط ابن رشد فى كتابه (سعادة النفس) وفى شرحه للكتاب الثالث من النفس لأرسطو نظرية المعرفة بسطا فاق فيه كل الذين تقدموه من فلاسفة العرب ، واستحدث فى هذه النظرية أفكارا جديدة لم يسبقه اليها أرسطو نفسه ، إذ نقد المؤلفين الذين شرحوا كتب أرسطو ولا سيما « الاسكندر الافروديزى » ثم أحل مذهبه المستحدث فى هذه النظرية محل ما هدمه من مذاهب أولئك الشراح الذين صوروا كلهم فى مذاهبهم عن أرسطو ثم اختلفوا فى النتائج لأنهم بنوها على مقدمات خاطئة .

يرى أرسطو أنه كما أن الانسان مركب من جسم وروح ، وهما جوهران مختلفان ، أحدهما إيجابى والثانى سلبى ، كذلك القوة العارفة مؤلفة من جوهرين متباينين تباين الروح المادة ؛ وكذلك أحدهما سلبى والثانى إيجابى كالجسم والروح سواء بسواء . ولا ريب أن الايجابى عند أرسطو أرفع من السلبى ، لأن الأول فاعل مؤثر ، والثانى منفعل متأثر كما نص على ذلك فى فلسفته . ولما رأى الشراح هذا الرأى للمعلم الأول ورأوا كذلك أن السلبى الذى كمنت فيه القوة أسبق فى الوجود الذهنى من الايجابى ، وأن ثبوت هذه الأسبقية للسلبى ينافى ما حكم به عليه أرسطو ، صرحوا بأنه يجب أن يبحث عن تحقيق ما حكم به المعلم الأول على هذين النوعين فى غير النفس البشرية . وهذا لا يتيسر إلا إذا جزمنا بأن الشق الايجابى غير شخصى ، وقد قال الشراح بهذا ، ولكنهم وقفوا عند هذا الحد فعقدوا النظرية وأظلموها ، وتركوا العقول حائرة فى توجيه كلامهم عنها . فلما جاء ابن رشد صرح بأن هذا القسم الايجابى هو نفس العقل العاشر ، وهو أقرب العقول إلينا ، فهو يشرف على المعرفة العامة ويفيض علينا أجزاءها .

ملخص كل هذا إذاً ، هو أن أرسطو جزم أولا بان هناك شقين ، أحدهما سلبى والثانى إيجابى . ثانيا ، أنه قال بمادية الأول ولا مادية الثانى ، وأن الشراح استخلصوا من هذا أن القسم الايجابى يوجد خارج النفس البشرية ، وأن ابن رشد وحد بين هذا القسم الايجابى وبين العقل العاشر .

وقد قال الأسكندر الافروديزى : إن الشق السلبي المادى ليس إلا ظرفا للشق الايجابى الذى هو الحاكم المؤثر . وعلى الجملة : فالقسم السلبي فى الكائن هو ما كان يسميه العرب بالهيولى ، والايجابى هو ما كانوا يسمونه بالصورة . أما بالنسبة الى القوة العارفة ، فابن رشد يجزم بأن السلبي هو « هيولى » وأن الايجابى هو فيض العقل العاشر ، وأن ما لدينا من معارف خاصة هو بعض هذا الفيض العام من العقل العاشر .

وأدوات المعرفة البشرية عند هذا الفيلسوف هى العقل ، ورسائله التى هى الحواس ، والوسيلة الوحيدة الموصلة الى جعل هذه الاداة تؤدى وظيفتها على أحسن وجه هى التثقيف وحده .

ومن هنا يرى مقدار عمق الطابع الأرسطو طاليس فى فلسفة ابن رشد أكثر ممن سبقوه من فلاسفة الاسلام ، لأن ابن سينا يقول بوسيلتين للمعرفة ، وهما : الثقافة والرياضة . وهذا هو التأثر بالمذهب الملفق الذى دس على أرسطو فى العصر الأسكندرى ، وما هو فى الحقيقة إلا مزيج من مذهبى أفلاطون وأفلوطين ، أما ابن رشد فهو يفرد الثقافة ويختصها بأنها وسيلة المعرفة . وهذا هو نص قول أرسطو : « أنا لا أعرف إلا إنسانين : إنسان مجرب عالم ، وآخر خال من التجربة جاهل » .

أما رأينا فى فلسفة ابن رشد ، فلا يكاد يخرج عن الدائرة التى هاجمنا فيها ابن سينا والفارابى ، لأنهم جميعا ينسجون على منوال واحد وهو منوال أرسطو الذى افتتنوا به فغالوا فى تقليده مغالاة حالت بينهم وبين النظر فى أقواله والروية فيما يخالف العقل السليم من مذهبه . فراجع ما رددنا به على هذين الفيلسوفين فى مسألتى قدم العالم وتوسط النفوس الفلكية فى نقل علم الجزئيات الى البارى .

هذا وقد نعود فى فرصة أخرى فنتحدث اليك عن بعض فلاسفة الاسلام الآخرين الذين لم نتناولهم فى هذه السلسلة ، فالى الملتقى .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

فلسفة ابن رشد

رأيه فى قدم العالم

قرأت ما كتبه حضرة الدكتور محمد غلاب فى رأى ابن رشد فى قدم العالم فلم أره مطابقا لمذهب ابن رشد المعروف لنا فى هذه المسألة ، بل ولا لغيره من مذاهب الفلاسفة الالهيين ، فرأيت أن آتى بنص ما ذكره ابن رشد فى كتابه فصل المقال ، وها هو ذا :

قال فى كتاب فصل المقال ما نصه : « وأما الصنف الموجود الذى بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شىء أعنى عن الفاعل . وهذا هو العالم بأسره ، والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم . فان المتكلمين يسلمون أن الزمان متقدم عليه أو يلزمهم ذلك ، إذ الزمان عندهم شىء مقارن للحركات والأجسام ، وهم متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون فى الوجود الماضى والزمان الماضى ، والمتكلمون يرون أنه متناه . وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته . وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال فى المستقبل ، فالموجود الآخر قد أخذ شبها من الموجود الكائن الحقيقى ، ومن الموجود القديم ، فمن غلب ما فيه من الشبه بالقديم سماه قديما ، ومن غلب ما فيه من شبه المحدث سماه محدثا ، وهو فى الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا . ومنهم من سماه محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته لكون الزمان متناهيا عندهم من الماضى . فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لا يكفر » انتهت عبارته .

وتوضيح ذلك أنه قسم الموجودات الى ثلاثة أقسام : موجود لا عن علة ولا من مادة وهو الله واجب الوجود الغنى المطلق عن كل ما عداه . وموجود عن فاعل ومن مادة والزمان سابق على وجوده وهى الأجسام التى ندركها بالحس كجسم الماء والهواء والنار والانسان والحيوان والنبات . وهذان القسمان من الموجودات لا خلاف فيهما ، إنما الخلاف فى القسم الثالث وهو الذى ذكرنا لك نص عبارته فيه . وبيانها أن مواد العالم التى لا تدرك بالحس قبل أن تأخذ صورتها الشخصية وما يتعلق بها من الأرواح المجردة عن المواد موجودة عن فاعل وهو الله تعالى باتفاق ، ولكن اختلفوا فى أنها مسبوقة بالزمان فتكون حادثة ، أو غير مسبوقة فتكون قديمة . أما المتكلمون فانهم يقولون إنها حادثة مسبوقة بالزمان . وأما الفلاسفة فمنهم من يسميها محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته . أما كونها محدثة فلصدورها عن الفاعل ، وأما كونها أزلية فلوجودها قبل الزمان المتناهى عنده ، لأن الزمان له نهاية ينتهى عندها فى الماضى ، ومادة العالم والعقول موجودة قبل ذلك . ومنهم من يسميها قديمة وهو أرسطو وفرقته ، لأنهم

يقولون إن الزمان وهو مقدار حركة الفلك الأعظم لا أول له، فهي غير متناهية في الماضي، فالعالم لا أول له لاستناده الى القديم الذي لا أول له. وسنوضح لك مذهبهم في مقالنا الآتي

فابن رشد صرح بأن العالم موجود قبل الزمان، ويسمى محدثا لشبهه بالمحدثات الجسمية الصادرة عن الفاعل، وقديما لشبهه بالقديم الذي لم يتقدمه زمان. وقد قال بعد ذلك في الكتاب المذكور: إن ظاهر القرآن يؤيد هذا، فقد قال تعالى: «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء». فظاهر هذا يفيد أن العرش والماء كانا موجودين قبل الزمان المقارن لحركات الأجسام، ولكنه سكت عن كونه صادرا عن الاله بطريق الخلق والايجاد، فيكون له أول وإن لم يسبقه زمان، وهو صادر بطريق التعليل بمعنى أن الاله علة فيه فيكون وجوده مقارنا لوجود الاله في الخارج مقارنة العلة للمعلول بحيث لا ينفكان عن بعضهما، فلا يكون له أول. وفي هذا المعنى الثاني نقص لأنه ينفي الاختيار عن الاله، ولهذا قام الخلف بين المتكلمين وبين الفلاسفة الذين نقلت عنهم نظرية العقول وقدمها وقدم المادة. وقالوا إن الذي يقول ذلك الكلام يكفر لأنه سلب عن الاله أخص صفات الكمال وهو الاختيار. فاذا كان ابن رشد يريد أن يوفق بين المتكلمين والفلاسفة فانه يلزمه أن يقول إن الفلاسفة لم ينفوا الاختيار عن الاله، وأنه لا يلزم من قولهم العالم قديم أنه لا أول له في الوجود كالاله، وإنما هم يريدون أنه غير مسبوق بالزمان المعروف. وهذه النظرية يسلمها المتكلمون، وعلى هذا يكون الخلاف لفظيا كما قال ابن رشد.

ولهذا قال الدواني والطوسي إن الفلاسفة لم ينفوا عن الاله الاختيار. وقال بعض علماء الفلسفة إنهم قالوا إن العالم واجب الوجود لغيره بمعنى أن الله تعالى أوجب على نفسه إيجاده أو تعلقت إرادته به فصار واجبا، فرأى ابن رشد التوفيق بين مذهب المتكلمين والفلاسفة في هذه المسألة، لا أنه يقول إن الاله لم يزد عمله عن كونه صانعا يضع التصميم لمادة موجودة حركتها طبيعية فيها، وأنه يصورها بالصورة التي تقتضيها الحكمة كما يصور صانع الأباريق والقلل أوانيه من موادها الموجودة أمامه، وأنه لا عمل له في التناسل الجيلي سوى تخليص الأبناء من الآباء، لأن هذا الكلام يفيد ظاهره أن المادة موجودة بطبيعتها غير مستندة الى الواجب، وأن ليس للاله إلا إفاضة الصور، وهو نقص عظيم في مقام الألوهية يتنزه تعالى عنه. فعلى حضرة الدكتور أن يذكر لنا النص الذي يدل على ذلك، أو يؤول عبارته بما يجعلها قريبة من مذهبه إن كانت تحتمل التأويل، كي لا يكون مثل هذا القول سببا في الجرأة على مقام الاله. هذا وسنكتب في العدد التالي بيانا لمذهب الفلاسفة وما قيل فيه، إن شاء الله.

عبد الرحمن الجزيري

التشريع المصرى والتشريع الاسلامى

وضع التشريع الاسلامى مصالح الناس المتشعبة فى المنزلة الاولى من عنايته ، فتناول الكلام عن ملابسات النوع البشرى من فاتحة أمره الى خاتمة عمره ، ثم عقد علماء الفروع البحوث المستفيضة فى تلك المناحى ، فتناولوا الكلام عن النكاح ومقدماته وأحكامه وتوابعه ، وعن النفقة بأنواعها ، وعن الطلاق فى جميع صوره وأحكامه ، وعن العدة وأحوالها وآجالها ، وعن ثبوت النسب ، والرضاعة ، والوصية والحجر والهبة والمواريث . هذا الى أحكام المعاملات وأحكام الوقف ، كل ذلك بما لا مزيد عليه .

ولقد استطاعت المحاكم الشرعية أن تثبت بجلاء فى مدى خمسين عاما تقريبا كفايتها على ممارسة الفصل فى الأحوال الشخصية القائم عليها النزاع بين المتقاضين ، واضطلاعها دون سواها بتلك الأعباء الثقال ، حتى لقد حدثنى مستشار قدير وهو اليوم وزير أنه وقد كان رئيسا لاحدى الدوائر المدنية فى محكمة الاستئناف العالى كانت تعرض عليه قضايا يأتى فى ثناياها طلب حثيث من أصحابها بفرض نفقه لبعض هؤلاء على لسان محاميه ، ومع أنه كان مقتنعا بضرورة فرضية هذه النفقة على أن لا يزيد أجلها عن الضرورة الملابسة ، غير أنه من ناحية أخرى كان يرى أن معالجة هذا الباب من عمل القاضى الشرعى ، فيجب الالتفات عليه فى أخص شئونه ، والقاضى الشرعى إذا فصل فى باب النفقة بأنواعها مثلا فانما يصدر عن استهداء بالمشاهدات ومعالجة للمعضلات وما عرض له من تجاربه فى تطبيق الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان ، لا يعوزهم إذا أثبتت التجارب خطأ فى التطبيق أن يتقدموا صفا وحدا الى أولياء الكلمة وأن يطالبوا بادخال تعديل أو تعديلات على ما يجرى به العمل من مذهب أبى حنيفة ، فلا غضاضة عليهم أن يطلبوا الى أولياء الكلمة بتطبيق مذهب أو مذاهب الأئمة وإن لم يكونوا من الأئمة الأربعة متى كان فى تطبيق هذه المذاهب تحقيق لمصلحة المتقاضين وإبقاء على مرافقهم .

لكن ما أسرع أن تمخضت حيل الناس فى تطبيق مواد الطلاق ، ومواد النفقة ، وافتنانهم فى الهرب من تطبيق الأحكام الشرعية على مذهب أبى حنيفة عن عجز القضاة الشرعيين وعدم قدرتهم على تطبيق تلك الأحكام تلقاء ما يبديه المطلق من أفانين وحيل للفرار من طائلة العقاب ، وما يبديه المحكوم عليه بالنفقة ، وما يبرز من حيل المحتالين فى ذلك الميدان المنبسط الذى لا يحده تقنين ، ولا يردع عن العبث به رداع ، فجأر القضاة الشرعيون بالشكوى من فشل هذه التجربة ، وقد شعروا بضرورة البحث فى غير مذهب أبى حنيفة من المذاهب عما يسد حاجة المتقاضين ويفسح المجال للقضاة باعتبارهم المطبقين لأحكام الشريعة والمهيمنين على تنفيذها

فى مواد الأحوال الشخصية نائبين فى ذلك كله عن ولى الأمر فى البلاد ، وما يقطع الطريق على حيل المحتالين ، وما يفتح عيون الباحثين على ثروة غزيرة من العلم كانت ولا تزال منهلا ينهل منه المتقاضون وغير المتقاضين ، وما يقوم دليلا فى كل يوم على أن الفقه الاسلامى كفيل بمسايرة كل عصر وجيل ، وخليق بان يحمل أمانة البشر فى مختلف مرافقه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

فوضع مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٠ خاصا بأحكام النفقة وبعض مسائل الأحوال الشخصية مؤلفا من ثلاث عشرة مادة ، وهو يتناول معالجة الأحوال التالية :

(١) النفقة (٢) العجز عنها وما يترتب على ذلك العجز من الآثار (٣) حكم المفقود وما يترتب عليه قبل الخصوم من حقوق (٤) حكم القاضى بالتفريق للعيب وما يترتب على ذلك العيب من آثار مباشرة وغير مباشرة (٥) الترخيص للزوجة بطلب التفريق من القاضى حال قيام العيب فى زوجها وحاجة المجتمع اليه (٦) أحكام عامة متفرقة . ثم درجت المحاكم على تطبيق ذلك القانون بأمانة وتوفيق ، ودرج المفتشون القضائيون فى وزارة الحقانية على تتبع تطبيق ذلك القانون ، وتبين المدى الذى وصل اليه من إصابة حاجات الجمهور وسد كفاياتهم واقناعهم بأن فى ثنايا الفقه الاسلامى ما يكفل بعث الطمأنينة الى قلوبهم وإيصال الحقوق الى ذويها ، فلم تمض فترة من الوقت غير طويلة حتى استفاضت تقارير المفتشين القضائيين بأعطر الثناء على ذلك الأثر الطيب الذى تركه قانون سنة ١٩٢٠ فى نفوس المتقاضين .

وهكذا تحررت عقول طلاب الاصلاح من ربقة التقليد من كل قديم ، واقتنعوا بأن تطور الحياة وتشعب مسالكها وما يجد فيها من أحداث وعبر من أقوى الحوافز على تلمس أفضل المناهج فى باب التقاضى وكفالة مصالح الناس وردها الى أمثل طريق وأبلج محجة .

من أجل ذلك اطرد البحث عما يساير مصالح الناس ويماشى رغائبهم ، وما يدفع عن المجتمع علله وأمراضه ، فشعر المصلحون مرة أخرى بضرورة حماية الأسر من تلك الأمراض الفواتك التى لم يدفعها ما هو مدون منها فى لائحة المحاكم الشرعية خاصا بالطلاق وبالتفريق للغيبة وبدعوى النسب وسن الحضانة وما الى ذلك ، فوضع مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ خاصا ببعض الأحوال الشخصية يتألف من ٢٥ مادة ، وهو يقع فى تسعة أبواب : الباب (١) الطلاق (٢) الشقاق بين الزوجين (٣) التطبيق لغيبة الزوج (٤) دعوى النسب (٥) النفقة والعدة (٦) المهر (٧) سن الحضانة (٨) المفقود (٩) أحكام عامة .

ولا تزال الامة فى مسيس الحاجة الى وضع قانون موضوعى ، فاشير بوضع ذلك القانون ، ثم تالفت لذلك لجنة تحت رئاسة فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر ، ونعتقد أنها بالغة ما تصبو اليه الأمة من كفايته لمرافقها وسد عوزها التشريعى .

لجا طلاب الاصلاح الى سن قانون موضوعى يحيط قدر المستطاع بمرافق الناس ويسد كفايتهم القضائية ويحرر العقول من كل تقاليد لا يتفق ومصالح الجمهور .

فالقول إذاً بعدم مسايرة التشريع الاسلامى فى شتى مراحله لتطورات الزمن وملابساته واللجوء الى اقتباس بعض الانظمة الأوروبية فى معالجة شئوننا المتعلقة بالأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان أو فى المعاملات القائمة على الحقوق المدنية ، ضلالة من ضلالات العقل ، ووضع للشئ فى غير مركزه اللائق به . فالتشريع الاسلامى قادر على أن يؤلف من أنماطه الصالحة ونظرياته الخالدة المتمشية مع كل عصر وجيل للعالم كله قوانينه الجنائية والمدنية والتجارية مما نحاول بسطه فى بحوث تالية ؟

عباس طه

تصحيح أخطاء فى الجزء الثانى

ص	س	خطأ	صواب
٩١	٢٢	طسم	حم
٩٦	٣	ويريدن	ويريدون
٩٧	٢٧	بالرحمة	بالمرحمة

ووضعت أثناء الطبع صفحة ١٤١ مكان ١٤٠

ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الأحاديث :

هو فهرس جامع لاحاديث الكتب السبعة برشد الى مواطنها منه بطريقة سهلة . وهو فوق ذلك قد جمع مرويات كل صحابى وصحابية ، وأسماءهم ، مرتبة على حروف المعجم ، وعدد الأحاديث المختلفة المواضيع فى تلك الكتب جميعا .

قامت بطبعه جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، وثمنه ستون قرشا .

تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد :

هو مجموع صالح من الأحاديث النبوية للامام زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى من أهل القرن التاسع الهجرى .

قال فى مقدمته : « لما رأيت صعوبة حفظ الأسانيد فى هذه الأعصار لطولها ، وكان قصر أسانيد المتقدمين وسيلة لتسهيلها ، رأيت أن أجمع أحاديث عديدة فى تراجم محصورة ، وتكون تلك التراجم فيما عد من أصح الأسانيد مذكورة إما مطلقا على قول من عممه ، أو مقيدا بصحابى تلك الترجمة ، الخ الخ »

ثم أخذ فى سرد الأحاديث التى أخذ أئمة الفقه منها مذاهبهم ، وكلها أحاديث صحيحة ، مكتفيا بذكر راويها الأول عن الصحابى أو الصحابية .

وقد علق على هذا السفر الجليل فضيلة مصححه الأستاذ محمود حسن ربيع من علماء الأزهر

الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد :

صدر القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد الذى يقوم بوضعه وشرحه فضيلة الأستاذ الشيخ احمد عبد الرحمن البنا ، وقد جاء على غرار ما سبقه من الترتيب الحسن والطبع المتقن ، وهو عمل جليل يشكر عليه الأستاذ . ويطلب منه بعطفة الرسام رقم ٩ بالغورية .

سنن الله الكونية :

نشرنا المقدمة البليغة لهذا الكتاب فى عدد سابق ، ونعود اليوم لتقريظه ، وإنه لعمل موفق قام به الأستاذ الجليل محمد احمد الغمراوى المدرس بكلية الطب والمنتدب لتدريس علم سنن الله الكونية فى كلية أصول الدين . فقد جمع فيه جمهرة من موضوعات علم الطبيعة كالمادة ،

والحرارة وأحوالها ، والسحاب ، والمطر ، والبرد ، والضوء وآثاره الكيماوية ، مفيضا الكلام في كل منها بعبارة بليغة ، واطلاع واسع ، وبيان شاف . فنشكر لهذا المؤلف النابغة عمله الجليل ، ونرجو أن يوفق للمزيد منه خدمة للعلم .

حركة الكشف :

هذه رسالة تبين ماهية الكشف وفرق الكشافة وما يجب أن يتحلوا به من خلال وخصال ، وفوائد هذه الفرق وحاجة الأمم اليها . ثم يلي ذلك تاريخ الكشف في الأمم ، وتاريخ الكشافة في مصر ، وختمت الرسالة بمكان الكشف في الاسلام .

وقد كتب هذه الرسالة مؤلفها الطالب النجيب الشيخ احمد الشربيني جمعه الشرباصي بعبارة طلية شائقة ، فنشكر له اجتهاده ، ونرجو له التوفيق فيما هو بسبيله من طلب العلم .

القراءة العصرية في تعليم العربية :

وضع هذه الرسالة الأستاذ الفاضل زيدان افندي بدران المصري عضو دار التربية والتعليم بوزارة المعارف الافغانية سابقا لتعليم الايرانيين والافغانيين اللغة العربية . وقد سلك فيها مسلكا تعليميا حسنا يوصل الى الغرض المقصود منها من أقرب الطرق . وقد طبعها طبعا جميلا . فنشكر له همته في خدمة اللغة العربية ، ونرجو أن يوفقه الله للمزيد .

اختصار علوم الحديث :

هو كتاب جليل القيمة وضعه المحدث المشهور الحافظ ابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤) هـ . وهو لعظم فائدته اختارته لجنة وضع المناهج في علوم التفسير والحديث ليدرس كله في كلية أصول الدين وأنواع منه في كلية الشريعة . وقد قام بتصحيحه والتعليق عليه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد محمد شاكر القاضي بالمحاكم الشرعية والعضو بتلك اللجنة ، فجاء غاية في الافادة والتحقيق.

وقد طبع طبعا أنيقا على ورق جيد. فنحث محبي الاطلاع على علوم الحديث على اقتنائه فانه من خيرة الذخائر العلمية .